

# الباب الثالث

أنا...

في القرآن الكريم

obeikandi.com

## الفصل التاسع

### الذات الإنسانية فى القرآن الكريم

#### ١- الجسد

- الجسد مُكوّن أساسى للذات الإنسانية
- الروح ليست مصدر حياة الجسد

#### ٢- العقل

- منزلة العقل
- العقل فى القرآن الكريم
- الملكات العقلية
- موقف القرآن الكريم من العقل
- العقل بين القرآن واللغة

#### ٣- القلب

- وظائف القلب العاطفية والمنطقية
- هل القلب مجرد مضخة للدم؟
- أقسام القلوب

#### ٤- الروح

- وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا

#### ٥- النفس

- النفس والروح، ثنائية أم واحدة؟
- النفس محل التكليف والاختيار.
- علاقة النفس بعناصر الذات الإنسانية.
- صور من معاصى النفس.
- أثر الطاعات على النفس.
- سنة الله مع النفس البشرية.
- عوالم ومراتب النفس.

#### - القارئ الكريم

obeikandi.com

تحدثت في الفصول السابقة عن ذاتي، «الذات الإنسانية»، من منظور العلوم المختلفة، فتعرفنا عليها من خلال الرؤى المتخصصة لكل من علوم المخ والأعصاب، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والبيولوجيا، والتطور البيولوجي، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والتاريخ، واللغة، وغيرها من العلوم.

ويمكن تشبيه استقلال نظرة كل من هذه العلوم إلى الذات الإنسانية بالقصة الرمزية المشهورة عن مجموعة العميان، الذين طُلب منهم أن يتحسسوا فيلاً ثم يصفوه، فاختلفت أوصافهم تبعاً للعضو الذي وضع كل منهم يده عليه. فمن تحسس نابي الفيل وصفه بأنه صلب أملس، ومن تحسس خرطومته اعتقد أن الفيل كائن طويل يتلوى كالثعبان، ومن تحسس جسده اعتقد أنه كالحائط الخشن المتعرج، ومن وضع يده على ساقه شبهه بالشجرة، أما من تحسس ذيله فقد أشفق على هذا الكائن الهزيل!!.

ألا توافقني أننا من أجل الوصول إلى صورة متكاملة للفيل (أقصد للذات الإنسانية) نحتاج إلى نظرة فاحصة محيطية من بصير، نظرة تحيط بالنفس من كل زواياها، وتتجاوز النظرة التفكيكية التجزيئية. لا شك أن خير من يقدم لنا هذه النظرة هو خالق الإنسان الذي لا تتوقف صلته بالذات الإنسانية عند إنشائها، بل يتابعها في حياتها، ويكلفها، ويحاسبها، ويجازيها. لذلك، لا يكتمل حديث «أنا» عن نفسها إلا بطرح وصف الله ﷻ للذات الإنسانية في القرآن الكريم.

من المفاهيم السائدة عند الحديث عن الإنسان بالمنظور الديني أن الذات الإنسانية جوهر غيبي هو الروح، وأن الجسد ما هو إلا دابة الروح أو عبادة تسربل بها أثناء حياتها الدنيا. ولكن نظرة متأملة لنصوص القرآن الكريم وللعقيدة الإسلامية ترينا أن تلك الذات وجود مُرَكَّب من خمسة عناصر (الجسد - العقل - القلب - النفس - الروح) نناولها الآن ببعض التفصيل<sup>(١)</sup>:

(١) لا شك أن ما ورد في القرآن الكريم حول هذه المكونات الخمسة شديد الغزارة، وقد أعمل فيه علماء العقيدة والفلاسفة المسلمين عقولهم فخرجوا بمفاهيم وآراء تملأ بتفاصيلها واختلافاتها مئات المجلدات. وقد اخترت أن يكون عرضي لمفهوم الذات الإنسانية بمكوناتها الخمس محدداً معتمداً على المفاهيم التي نستقيها بشكل مباشر من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، دون الدخول في التفاصيل ودقائق الاختلافات.

## ١ - الجسد . . .

### الجسد مكون أساسى للذات الإنسانية

هناك نقطة خلاف جوهرية ينبغي أن نتأملها، إنها منزلة الجسد بالنسبة للإنسان، في منظور الإسلام. هل الجسد شيء مُدَنَّس مُنتَقَص، لا يحقق الإنسان الترقى الروحي إلا بإذلاله أو تجاوزه، أم هو دابة الروح، أم هو أكثر من ذلك؟ هذه ثلاث مراتب للجسد ينبغي أن نختار من بينها.

لا شك أن كثيرًا من المتدينين يعتقدون في الفهم الأول أو الثانى، إن تلك النظرة تتطلب التصحيح والتعديل، إذ إن صريح القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة تعلو بالجسد فوق هاتين المنزلتين، وتعتبره مكونًا أساسيًا للذات الإنسانية. ونستشهد على ذلك ببعض النقاط:

١ - كانت رحلة المعراج لرسول الله ﷺ بالجسد والروح (في الرأى الأرجح). وأرى أن المقصود بذلك ليس إظهار قدرة الله ﷻ ولا تعظيمه لمنزلة رسوله الكريم فقط، لكن في ذلك إشارة إلى أن حقيقة الإنسان هي الجسد والروح معًا، وأن الجسد يمكن أن يرقى إلى مراقى الروح، وأن ينفذ إلى عوالمها غير المادية.

٢ - لا ينبغي أن ندفع النقطة السابقة بأن هذه خصوصية لرسول الله ﷺ؛ إذ إن كل إنسان منا يحقق العروج الروحي عن طريق سجود الجسد في الصلاة التى هى معراج المؤمن ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

٣ - عندما أراد الله ﷻ أخذ ميثاق ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] من بنى آدم، فقد خاطب الأرواح / الأنفس من خلال الأجساد، بعد أن أخرج البشرية جميعًا من ظهر آدم في أجساد دقيقة كالدر وأخذَ عليها الميثاق، ويمكن تفسير آية الميثاق على أن فطرة التوحيد قد وُضِعَتْ في جينات نُطْف (الحيوانات المنوية والبويضات) كل إنسان في زمانه. إن كلا التفسيرين يعنيان أن المخاطب بالميثاق ليس الروح / النفس فقط، ولكن أيضًا الجسد.

٤- تأمل قول الله ﷻ في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

إن الإنسان يأتي إلى الدنيا لا يعلم شيئاً، ثم يبدأ في اكتساب العلوم والمعارف من خلال حواس الجسد، فتتعلم أموراً عن عالم الغيب ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرَ السَّاعَةِ إِلَّا كَلِمَةَ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧] كما نتعلم أموراً عن عالم الشهادة ﴿الْعَرِيرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

ليس ذلك فقط، بل إن الله ﷻ يحفز الإنسان ليتذكر الميثاق الذي أخذه على الإنسان ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] من خلال مراكز الذاكرة في المخ. كما يزداد إيمان الإنسان بالله ﷻ من خلال الحواس ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٢].

٥- في العبادات كلها (الصلاة والصوم والزكاة والحج) يقوم كل من الجسد والروح/ النفس بدوره. وتصح العبادة من الناحية الشرعية إذا أديناها بالجسد وإن قَصَرَت الروح/ النفس، أما العكس فغير صحيح!

٦- لا شك أن المنفعة تبادلية بين الروح/ النفس والجسد. فالنفس ترقى بمجاهدات يشارك فيها الجسد، كقيام الليل والصيام. كذلك يحقق السمو النفسى فوائد جمة للجسد، من خلال رفع مستوى المناعة، وخفض معدل النوبات القلبية والمخية، وتأخير الشيخوخة.

٧- بعد موت الإنسان ومفارقة الروح/ النفس للجسد، ينبغي معاملة الجسد معاملة تكريم وإعداد للحياة الأخرى. فيتم تغسيله ليكون على طهارة، ويُلف في كفن أبيض نظيف، ويُصلى عليه، ويُدعى للمتوفى بالرحمة في حضور الجسد، ثم يُسجى مواجهاً للقبلة.

٨- عند البعث، يُجسّر الإنسان بروحه ونفسه وجسده، ليتم محاسبته على معاصي النفس ومعاصي الجوارح. ويجازى الإنسان ككائن متكامل، بالنعيم أو بالعذاب.

٩- تأمل حديث رسول الله ﷺ الصحيح المتفق عليه (رواه النعمان بن بشير): (...ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا

وهى القلب). ومن دلالات الحديث أن الصلاح والفساد مصدرها مضغعة في الجسد، ويشملان الإنسان كله، وقد أشار إليه الرسول ﷺ بـ (الجسد كله). هل يصح بعد ذلك أن نقول أن الجسد لا اعتبار له ولا قيمة!

تؤكد هذه النقاط التسع، وغيرها كثير، الصلة الوثيقة بين الجسد والروح / النفس، حتى يمكننا القول: إن كل ما يعتمل في الروح / النفس يطفح على الجسد،

﴿... إِذَا يَسَلَى عَلَيْهِمْ يُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سَجْدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].  
﴿وَيُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].  
سبحان ربى ﷻ!

وينبغى أن نلاحظ أن القرآن الكريم يتحدث في مواضع مختلفة عن الجسد وعن الروح وعن النفس، بشكل منفصل:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١].  
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ [الشمس: ٧].  
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥].

إلا أن الله ﷻ عندما يتحدث عنا أو يوجه إلينا الخطاب، يكون ذلك باعتبارنا كلاً متكاملًا (الإنسان)، منذ يوم «ألستُ بربكم»، وحتى نلقى الله ونحيا خالدين في الحياة الأخرى.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].  
﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

إن الفصل بين مكونات الإنسان، واعتبار أن بعضها جوهرى (الروح) وبعضها ثانوى (الجسد) وبعضها واسطة بين الاثنين (النفس)، هو مصدر الالتباس. لذلك ينبغى أن نعيد صياغة نظرنا للإنسان باعتباره كلاً متكاملًا.

لا شك أن الإسلام يتفرد بهذه النظرة المتكاملة. فاليهودية والمسيحية، التى بين أيدينا، تنظر إلى الجسد ورغباته باحتقار، وترى أن الخلاص فى الحياة الأخرى لن يكتمل للروح إلا بعد أن يُبدل الجسد المرتكب للمعاصى بجسد خالٍ من الرغبات المادية. كذلك ترى الهندوسية

وديانات الشرق الأقصى أن حقيقة الإنسان هي الروح فقط، لذلك ترى السعادة الكبرى في تحرر الروح من الجسدية المدنسة، والتحاقها بالروح الكلى، كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط. وفي المقابل، يتنكر الفكر المادى لأى أصول غيبية للإنسان، ولا يرى فيه إلا المادة وقوانينها. ما أحوجنا إلى النظرة المتوازنة المتكاملة.

## الروح ليست مصدر حياة الجسد

وترتبط بالجسد ظاهرة الحياة، وهى غنية عن التعريف، فكل منا كائن حى، كذلك يمكننا أن ندرك الحياة بشكل أعمق عند تأمل ظاهرة الموت، فبضدها تتميز الأشياء.

ومن المفاهيم الخاطئة واسعة الانتشار عن الروح والحياة أن الأولى مسئولة عن الثانية، وأن الموت يقع عند مفارقة الروح للجسد. وهذا الفهم موجود لدى المتخصصين فى الطب وفى الدين على السواء، ومنتشر بلا شك بين العوام.

والصواب، أن الحياة ظاهرة بيولوجية توجد فى جميع الكائنات الحية، النباتية والحيوانية، كما توجد فى جنين الإنسان قبل نفخ الروح (الذى يحدث تبعاً للآراء الفقهية بعد الشهر الرابع من الحمل)، بل توجد أيضاً فى الحيوان المنوى والبويضة. أما الروح، الذى هو نفخة نسبها الله ﷻ إلى نفسه، فقد أختص بها الإنسان، فميزته بقدراته العقلية وملكاته الروحية، واستحق بها الخلافة من الله ﷻ فى الأرض<sup>(١)</sup>.

## ٢ - العقل . . .

### منزلة العقل

العقل هو المكوّن الثانى للذات الإنسانية، ومن أفضل ما قيل عن مهام وشرف منزلة العقل، كلام لابن قيم الجوزية، يقول فيه:

«والعقل به عُرِفَ الله سبحانه وتعالى وأسماءه وصفات كماله ونعوت جلاله. وبه آمن المؤمنون بكتبه، ورسله، ولقائه، وملائكته. وبه عُرِفَت آيات ربوبيته، وأدلة وحدانيته،

(١) للاستدلال على ذلك، وأيضاً للعلاقة بين الحياة والروح وبين الموت والتوفى، انظر الفصل العاشر بعنوان «أنا... والموت».

ومعجزات رسله. وبه امتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وبه حُث الإنسان على الفضائل، ونُهْي عن الرذائل، فاستَجَلَب ما يزين، ونَفَى ما يشين»<sup>(١)</sup>.

وحول منزلة العقل في الإسلام؛ يقول الأستاذ عباس محمود العقاد<sup>(٢)</sup>: «فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة، ولا يتوسط فيه السدنة والأخبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به إلى المحراب بشفاعة من وَلِيٍّ، أو صاحب قداسة مطاعة. ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حرّاً طليقاً من سلطان الهياكل والمحاريب، ومن سلطان كهانها المتحكمين فيها بأمر الإله المعبود كما يدين أصحاب العبادات الأخرى،.. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...﴾ (البقرة)».

كما سبق يتضح أن العقل هو أصل الدين، فهو الأداة التي يُحَصِّل بها العلم الذي يسلك بالعبد طريقاً إلى الجنة، ويرفعه فيها درجات ﴿... يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة). وبالعقل يُفهم المقصود من الأمر، ويُحَصِّل الدليل على صحة الأعمال، وبه تتم الموازنة والترجيح بين طريق النجاة وطريق الهلاك ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ۝١٠﴾ (الليل).

## العقل في القرآن الكريم...

كما يلفت الانتباه، أن لفظ «العقل» في صيغته الاسمية، لم يرد في القرآن الكريم مطلقاً، لكن وردت مشتقاته في صِيغِهِ الفعلية، مثل عقلوا ويعقلون وتعقلون ونعقل ويعقل، قرابة خمسين مرة. أما الألفاظ التي تدل على النشاط العقلي بصفة عامة، مثل التفكير والتدبر والعلم والنظر والإدراك والتفكر والتبصر، فقد وردت مئات المرات<sup>(٣)</sup>.

وربما يرجع عزوف القرآن الكريم عن استخدام الصيغة الاسمية للعقل واللجوء إلى الصيغ الفعلية إلى اهتمامه بالأفعال ونتائجها أكثر من اهتمامه بالتفاصيل النظرية. كذلك فإن استخدام الصيغة الاسمية يتطلب وضع تعريف للعقل، بينما كثيراً ما تفشل التعريفات في تصوير الشيء

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ٧ - ٨.

(٢) التفكير فريضة إسلامية - مجموعة أعمال العقاد - المجلد الخامس: ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) هذا البحث، تلخيص (مع إضافات) عن كتاب «الصوفية والعقل» تأليف الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة - دار الجيل.

المُعَرَّفَ تصويرًا دقيقًا، لا سيما إذا اتصل هذا الشيء بحقائق روحية أو نفسية، حتى قالوا «يكنم الشيطان في التعريفات، كما يكنم في التفاصيل». كما يتطلب استخدام الصيغة الاسمية المُعَرَّفَة تحديد الموضع والعضو الذى يقوم بتلك المهمة شديدة التعقيد والتى لم يتوصل العلم إلى كلمة نهائية فيها حتى الآن.

## الملكات العقلية

يحدد القرآن الكريم الملكات التى وهبها الله ﷻ للعقل، لتعينه على القيام بمهامه، ويمكن من تأمل الآيات الكريمة وَضَعُ أَيْدِينَا عَلَى سَبْعِ مَلَكَاتٍ، الثلاث الأولى منها فطرية تنشأ مع الطفل الوليد، والأربعة الأخرى مكتسبة:

١ - مَلَكَةُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البذل]، وللتنشئة التى تقوم بها الأسرة والمدرسة والمجتمع، دور فى تدعيم معايير الحُسن والقُبْح تبعًا لمرجعية تلك الجهات. وهذه المعايير خمسة: الحلال والحرام - العرف - التجارب السابقة - المصلحة الشخصية - الهوى.

٢ - مَلَكَةُ مَعْرِفَةِ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، ويسمىها البعض العقل التجريبي، وهى أساس كل تقدم حضارى يحققه الإنسان، كما أنها لازمة وضرورية للنجاة يوم القيامة. لذلك يركز القرآن الكريم على تدبر أحوال الأمم السابقة، وما حاق بهم من سخط الله عندما انحرفوا عن السبيل القويم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر].

٣ - مَلَكَةُ الْإِدْرَاكِ وَالتَّحْكُمِ: وبها يُلم الإنسان بكل ما يحتاج للإدراك، كالفرق بين المتقابلات (كالبعد والقرب) ومعانى الأشياء، وتكوين الجمل. كما أنها المسئولة عن التحكم، الذى هو أساس نظام العقل البشرى، فهو الذى يستقبل المدخلات العصبية، وبناء عليها يصدر الإشارات للجوارح لتنفيذ ما استقر عليه رأى العقل.

وتسمى الملكات الثلاث الفطرية الأساسية السابقة بالعقل الوهبي أو العقل المطبوع، وهى مطلوبة لأمانة الخلافة فى الأرض. وبفقد أحد تلك الملكات لا يصير الإنسان عاقلًا، ويسقط عنه التكليف الشرعى.

أما الملكات الأربع التالية، فتعرف بالعقل الكسبي، فهي قابلة للتدريب والتنمية والارتقاء، بشرط توافر ملكات العقل الوهبي:

٤ - مَلَكَةُ التَّأْمَلِ والتفكير: ترقى هذه الملكة بالتفكير في الآفاق والأنفس إلى مصاف العبادات ﴿سَتْرِيَهُمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١١١﴾ [آل عمران]، فمن أعمل فكره في آلاء الله ﷻ وصل إلى تنزيهه، لذلك ورد في آيات كثيرة قانون إلهي مُحكم ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة]، كما أوضحت الآيات القرآنية أن التفكير هو المراد من ضرب الأمثال في القرآن الكريم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاَهُ خَشِيْعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةٍ ۚ لَّوِ تَلَكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾ [الحشر].

٥ - مَلَكَةُ التَّدْبِيرِ: والتدبر أسمى من التفكير؛ فالتفكير هو التأمل في الأشياء، فهو كالمقدمات، أما التدبر فهو استمرار التفكير في الأمر حتى ينتهي إلى ما تصير إليه عاقبته، إذا فهو كالتناجج، ويقول العرب: دُبِّرَ كل شيء عقبه ومؤخره - وعَرَفَ الأمر تدبرًا، أى عرفه بآخره ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝١٤﴾ [محمد].

٦ - مَلَكَةُ الْحُكْمِ والحكمة: والحكم بداية تنتهي إلى حصول صاحبها على الحكمة، التي يعرف بها صاحبها أفضل الأوجه في أمر ما، لذلك يقال رجل حكيم. كما أن من أوجه الحكمة «العدل» وهو وضع الشيء في مكانه وفي موضعه، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٣١﴾ [البقرة]. لذلك فملكة الحكم ليست للجميع، لكنها عطاء يُحصَّله من أعمل ملكات عقله تفكرًا ثم تدبرًا، حتى توصله إلى ملكة «الحكمة» الرفيعة.

٧ - مَلَكَةُ الرُّشْدِ: وهى الذروة من ملكات العقل. فالرشد فهو الهداية، ونقيضه الغي والضلال. والطريق الأرشد هو الأقصر الذى يسرع بك إلى هدفك ومرادك. والرشد من أسماء الله ﷻ، فهو الذى أرشد الخلق وهداهم ودلهم على ما يصلحهم. وفى ذلك

يقول الرشيد رحمه الله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة]، ومن هاتين الآيتين نرى أن الرشد أرقى من الحكمة، فقد يصل إلى الحكمة من ليس على دين الإسلام، أما الرشد فهو الوصول إلى أن «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

وهذه الملكات الأربع الكسبية تسمو فوق العقل الوهبي، ولا يرقى إليها - أو إلى إحداها - كثير من الناس، وبقدر ما تستنير هذه الملكات تصبح سمة غالبية على العقل، فيقال لصاحبه رجل حكيم أو رجل رشيد.

### موقف القرآن الكريم من العقل

ولكى نستخلص موقف القرآن الكريم من العقل، نعرض ثلاثة نماذج من الآيات تدعونا إلى استخدام العقل وإلى التأمل، نحسب أنها كافية لعرض تصورنا عن هذه القضية<sup>(١)</sup>:

أ- في تأمل الظواهر الكونية، يقول تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٣] ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعِزُّ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد].

(١) إن المتأمل لموقف الدارسين من قضية «العقل في أحاديث الرسول ﷺ» يجد اتجاهين بارزين. الاتجاه الأول يرى أصحابه أن الأحاديث التي نسبت إلى الرسول ﷺ في العقل كلها موضوعة، ومن هؤلاء الإمام ابن الجوزي وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغيرهم. والاتجاه الثاني يرى صحة بعض ما ورد في أحاديث العقل، ووضعوا في ذلك المؤلفات، ومن هؤلاء ابن أبي الدنيا، وداود بن المحبر وميسرة والسجزي. وللخروج من هذا الموقف، رأينا الاكتفاء في موضوع (نظرة الإسلام إلى العقل) بآيات القرآن الكريم ففيها من البيان والتفصيل ما يُنزل العقل منزلته.

ب - فى تأمل الأنفس البشرية، يقول تعالى:

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝١١﴾ [الذاريات].

﴿سَبِّحْهُمْ عَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت].

ج - وفى تأمل الظواهر الاجتماعية، يقول تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة].

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّالِكٍ يَأْمِنُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ [الروم].

يمكن من تأمل الآيات الكريمة السابقة - وغيرها - أن نستخلص عدة مفاهيم حول موقف القرآن الكريم من العقل، أهمها:

أولاً: الثقة التى يوليها القرآن الكريم للحواس، بحيث تكون معطياتها هى منطلق التفكير والتدبر للاستدلال على الصانع المنعم. ويدل هذا على وثاقة الارتباط بين الحواس والعقل.

ثانياً: الوضوح والبساطة فيما تأمر به الآيات من عمليات التفكير والتدبر والتعقل، كأنها أمور لا تحتاج إلى تفكير عميق أو بحث غامض أو تحليل معقد (كمنهج الفلسفة والمنطق وعلم الكلام)، وإنما هى تدرك إدراكاً مباشراً أشبه ما يكون بالبداهيات العقلية.

ثالثاً: يمثل العقل ميزة فريدة وضعها الله ﷻ فى الإنسان؛ به يعرف ثم يعمل، ومن هنا كانت مسئولياته.

رابعاً: أن العقل الذى يتحدث عنه القرآن الكريم ليس عقلاً مجرداً، أو جوهراً قائماً بذاته (كما يعتقد الفلاسفة)، وإنما هو ظاهرة أو طاقة أو ملكة تمثل قدرة إلهية فى الإنسان، ليستعملها فى حدود رسمها له ونبيه إليها. لذلك فالعقل الإنسانى عقل واع بطاعة الله ﷻ، يلتزم طوعية بما يأمر به.

خامساً: إن العقل البشرى لا يصلح أن يكون حكماً فى كل شىء، ويتوجه هذا الحُجْر إلى ثلاثة أمور:

١ - أمور لا يدركها العقل الإنساني، كالذات الإلهية، فليس مما يعرفه العقل شىء مماثلها، حتى يمكن أن يقيسها عليه.

٢ - أمور لا تدخل في حدود الطبيعة البشرية المحدودة، كحقيقة الروح.

٣ - أمور لا تلزم للنهوض بوظيفة الإنسان في الوجود؛ كالغيب المحجوب عن العلم البشرى، ومثاله موعد يوم القيامة.

وبين الحق سبحانه كيف ينبغي تلقى مثل هذه الأمور، التى هى فوق مدركات البشر:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَّا يَؤْتِيهِ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَؤُلَاءِ الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران].

وفى عدا هذه الأمور، فالعقل البشرى مدعو للتدبر والتفكر والاعتبار، والتطبيق في عالم الضمير وعالم الواقع في إطار منهج الإسلام. وما من دين - أو منهج وضعى - احتفل بإيقاظ الإدراك البشرى، وإطلاقه من قيود الوهم والخرافة، وصيانته في الوقت ذاته من التبدد، كما فعل الإسلام.

سادساً: ينبغي أن يتحرك العقل من أجل ثلاث غايات متداخلة متلازمة؛ غاية إيمانية، وغاية معرفية، وغاية سلوكية حياتية. ومجال حركته ثلاثة جوانب متداخلة: الظواهر الكونية، والأنفس، والظواهر الاجتماعية.

إن المنهج الذى يرسمه القرآن للعقل للنظر والتدبر، هو الانتقال من الجزئيات إلى الكليات، أو تحليل الكليات إلى جزئياتها ثم الانتقال إلى التركيب (الخروج بمفاهيم جديدة)، أو أى طريقة أخرى يكتشفها العقل لنفسه دون قيد عليه أو حَجْر. معنى ذلك أن القرآن الكريم يحفز العقل البشرى إلى النظر في الآفاق والأنفس والمجتمعات بأى منهج علمى، مهما تعددت المناهج ومهما تسمت العلوم بأسماء متشابهة أو متباينة.

سابعاً: يقرر القرآن الكريم أن من يعطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان الأعجم.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال].

كما يقرر القرآن أن جزاء معطل العقل هو السعير.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١١﴾ [المملك].

ثامناً: لم يكتف القرآن الكريم بِحَثِّ العقل على العمل وترك التقليد والجمود، لكنه أثار أمامه عدداً من المسائل والقضايا الحيوية، وعالجها كنهاج لما ينبغي أن يكون عليه أداء العقل. وأهم هذه القضايا الاستدلال على خالق الكون دون وقوع في المحذور؛ الذي هو البحث في كنه الله وفيما اختص به نفسه. ومن هذه القضايا أيضاً الخلافات الجوهرية مع أرباب الملل والنحل الأخرى، كدعوى ألوهية عيسى عليه السلام.

تاسعاً: ربما كانت أقرب الإشارات لموضع عملية التعقل هي قول الحق ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج]، فالآية تشير إلى أن للقلب (الذي في الصدر) دوراً في عملية التعقل. وتتفق الآية مع معارفنا العلمية، إذ إن الشواهد العلمية الحديثة تتجمع منذ قرابة ثلاثة عقود على أن لهذا القلب دوراً في المنظومة المعرفية والشعورية والإيمانية للإنسان<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض لموقف القرآن الكريم من العقل، أتساءل: أمن سوء الفهم أم من سوء القصد أن يُرمى القرآن الكريم بأنه مُعَوَّقٌ للفكر مقيد لحرية، أو القول بأن الدعوة للنظر العقلي عند فلاسفة العرب كانت محاولة لتكميل القرآن في الجانب الذي قَصَرَ فيه؟! لا شك أن تلك دعاوى باطلة.

## العقل بين القرآن واللغة

لجأ اللغويون إلى القرآن الكريم ليجمعوا من آياته المعاني المقصودة بالعقل، وكذلك المرادفات اللغوية التي تشير إليه وتتفرع منه:

يُطلق «التعقل» في القرآن الكريم واللغة ويراد به معان كثيرة، منها: الثبت في الأمر، والإمساك والاستمسك، والامتناع. يقال: عَقَلْتُ الناقة، إذا منعتها من السير. ومن هذه المعاني

(١) راجع الجديد حول هذا الموضوع في كتاب «رحلة عقل»، للمؤلف - الفصل السادس. الناشر مكتبة الشروق الدولية - الطبعة السادسة ٢٠١٣.

الشد، يقال عَقَلَ الرجل، إذا كف نفسه وشدها عن المعاصي. وكل ما ذُكر من معانٍ أخرى يندرج تحت ما سبق ولا يزيد عليه، ومن هذه المعاني:

الحَجَرُ: ورد مرة واحدة، وقيل للعقل حَجَرٌ لكون الإنسان في مَنَعَةٍ به مما تدعو إليه نفسه ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ۖ﴾ [الفجر].

النُّهْيَةُ: وردت مرتين بصيغة الجمع (النُّهى)، وهو العقل الناهي عن القبائح ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۖ﴾ [طه].

الأحلام: يقال فيها ما قيل في الحجر والنهى ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُ بِهَذَا...﴾ [الطور].

اللب: ورد بصيغة الجمع (أولو الألباب)، وهو العقل الخالص من الشوائب. واللب نوع راق من العقل البشري، يمتاز بالرفعة والخصوصية ﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّوَلَّى الْآلِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ [الطلاق].

الفؤاد والقلب: قد يراد بـ «الفؤاد» و «القلب» العقل والإدراك والتفهم والاعتبار، وقد يراد بكل منهما معنى خاص به. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۖ﴾ [الحج]- ﴿... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۖ﴾ [الإسراء]. وقد ورد القلب في القرآن الكريم أكثر من مائة وثلاثين مرة، وورد كل من الفؤاد واللب ست عشرة مرة.

وبالنظر في الآيات الواردة فيها ما سبق من الاصطلاحات، يمكن أن نقول، إن العقل يطلق في اللغة العربية ويراد به جانبان؛ جانب سلوكي أخلاقي، وهو الجانب العملي، وهذا الجانب يطلق عليه «الحَجَرُ» و «النُّهْيَةُ» و «الحلم». وجانب إدراكي نظري، وهو ما يراد بـ «اللب» و «القلب» و «الفؤاد».

ونفهم من سياق الآيات أيضاً أن القلب واللب والفؤاد مستويات إدراكية يختلف بعضها عن بعض. فالفؤاد هو غشاء القلب، واللب سويداؤه وحبته. ويمكن الإشارة إلى ما أختص به القلب وهو الفقه، وما أختص به اللب وهو التذكر، وما انفرد به الفؤاد وهو الرؤية.

من الجولة اللغوية السابقة، يتضح أن القرآن الكريم يتبنى مفهوماً يعتبر أن الإنسان قد زُوِّد بجهاز إدراكي معرفي بالغ التعقيد، يقوم بوظيفتين رئيسيتين هما؛ الإدراك والمعرفة والعلم، والإيمان وما يتصل به من عاطفة ووجدان وإرادة، وأن جوهر هذا الجهاز هو العمليات العقلية.

ونختتم جولتنا مع العقل البشرى بشيء مما ذكر حول قول الحق ﷻ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ [النازعات]: مَنْ الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى؟

هل الجسم؟ لا، فلا قبَل له بهذا.

هل الروح؟ لا، فتوجهاتها واهتماماتها علوية.

إذاً، لا يكون إلا العقل.

### ٣ - القلب . . .

ينظر الإسلام إلى القلب فى الإنسان كالمملك بين الرعية، وكالسيد بين أتباعه، وبهذا وردت أحاديث رسول الله ﷺ التى منها: «.. ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»<sup>(١)</sup>.

وفى اللغة، القلب: عكس القالب، فهو بمنزلة اللب من القشرة. والقلب: هو تحويل الشيء عن وجهه. وَقَلَّبَ الأمور بمعنى بحثها ونظر فى عواقبها. وَتَقَلَّبَ فى الأمور وفى البلاد أى تصرف فيها كيف شاء. ويقول العرب: جئت هذا الأمر قلباً أى محضاً لا يشوبه شيء.

وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»، فقال له أصحابه وأهله: يا رسول الله اتخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به؟ قال: إن القلوب بيد الله ﷻ يقلبها»<sup>(٢)</sup>.

وقد يُعَبَّرَ بالقلب عن العقل، فالعرب تقول: ما قلبك معك؟ وما لك قلب؟، وأين ذهب قلبك؟ وهم يقصدون عقلك.

والقلوب فى القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: الروح أو النفس، فى قوله تعالى ﴿... وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ...﴾ (١٠) [الأحزاب]، فعبّر عن النفس الحية بالقلب.

الثانى: العقل، فى قوله ﷻ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) [ق].

(١) من حديث النعمان بن بشير - متفق عليه.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده.

الثالث: حقيقة القلب الذي في الصدر، كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤١) [الحج].

وبيّن الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين - باب العلم - أن القلب قلبان، الأول هو ذلك العضو العضلي الصنوبري الشكل القابع في تجويف الصدر، وهو المسئول عن ضخ الدم، والثاني هو القلب الذي تُنسب إليه الوظائف المعرفية والشعورية والإيمانية. ثم يبين أن بين هذين القلبين علاقة وتعلّق.

وفي القرآن الكريم، لم يأت ذكر للقلب كعضو محوري في الدورة الدموية ومسئول عن ضخ الدم، بينما جاء ذكره ١٣١ مرة مشيرًا إلى وظائف عاطفية Emotional أو عقلية منطقية Rational<sup>(١)</sup>.

## وظائف القلب العاطفية والمنطقية

إذا نظرنا إلى الوظائف العاطفية التي تُنسب للقلب، كما وردت في آيات القرآن الكريم، وجدناها تتأرجح بين الخير والشر. فمن أمثلة الأوصاف الخيرة، وصف القلب بأنه «قلب سليم»<sup>(٢)</sup>، و«قلب منيب»<sup>(٣)</sup>، و«قلب وَّجَل»<sup>(٤)</sup>، و«قلب مُخْبِت»<sup>(٥)</sup>، و«قلب خاشع»<sup>(٦)</sup> و«قلب لين»<sup>(٧)</sup>. كما تصف الآيات القرآنية القلب بأنه موضعاً لـ«التقوى»<sup>(٨)</sup> و«الإيمان»<sup>(٩)</sup>

(١) عن كتاب «وظائف القلب بين القرآن والطب» تأليف أ.د. فؤاد يحيى أحمد - أستاذ التشريح بكلية الطب - جامعة عين شمس.

(٢) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) [الشعراء].

(٣) ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (٣٣) [ق].

(٤) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) [الأنفال].

(٥) ﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٤) [الحج].

(٦) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...﴾ (١٦) [الحديد].

(٧) ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ (١٣) [الزمر].

(٨) ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ شَعِيرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٣٢) [الحج].

(٩) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ (١٤) [الحجرات].

و«السَّكِينَةَ»<sup>(١)</sup> و«الرأفة والرحمة»<sup>(٢)</sup>، و«الاطمئنان»<sup>(٣)</sup> و«الهداية»<sup>(٤)</sup> و«الخير»<sup>(٥)</sup>. كما يصف القرآن الكريم القلب بأنه قابل لـ «التأليف مع القلوب الأخرى»<sup>(٦)</sup> ولـ «التطهير»<sup>(٧)</sup> ولـ «الإصغاء = الاستماع والاستجابة للحق»<sup>(٨)</sup> وقابل لـ «الامتحان»<sup>(٩)</sup>.

ومن صفات الشر التي يمكن أن تصيب القلب، كما جاءت في القرآن الكريم؛ إمكانية اتصافه بـ «الغلظة»<sup>(١٠)</sup> و«الغفلة»<sup>(١١)</sup> و«الغيظ»<sup>(١٢)</sup> و«القسوة»<sup>(١٣)</sup> و«الغل»<sup>(١٤)</sup> و«الارتياب»<sup>(١٥)</sup> و«النفاق»<sup>(١٦)</sup> و«إنكار الحق»<sup>(١٧)</sup> و«اللهو»<sup>(١٨)</sup> و«التعصب»<sup>(١٩)</sup>

- (١) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ...﴾ [٤] ﴿[الفتح].
- (٢) ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِثِهِم بِرُسُلِنَا وَفَقَيْنَا يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنَةٌ يُدْعَوْنَ بِهَا كِتَابُهَا عَلَيْهِمْ ...﴾ [٧] ﴿[الحديد].
- (٣) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [٢٨] ﴿[الرعد].
- (٤) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١١] ﴿[التغابن].
- (٥) ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ كُلُّ إِيمَانٍ فِي آيَاتِهِمْ مِنْكَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَعْفُوكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٧] ﴿[الأنفال].
- (٦) ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...﴾ [٣٣] ﴿[آل عمران].
- (٧) ﴿... وَإِذَا سَأَلَ الْمُؤْمِنُونَ مَعًا فَسْأَلُوهُمْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ ...﴾ [٣٢] ﴿[الأحزاب].
- (٨) ﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا ...﴾ [٤] ﴿[التحريم].
- (٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعْضُونَ آصُوتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [٢] ﴿[الحجرات].
- (١٠) ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَقُضُوا مِنْ حَوْلِكَ ...﴾ [١٥٩] ﴿[آل عمران].
- (١١) ﴿... وَلَا تَطْعَمْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [٢٨] ﴿[الكهف].
- (١٢) ﴿وَيَذْهَبْ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [١٥] ﴿[التوبة].
- (١٣) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ...﴾ [٧١] ﴿[البقرة].
- (١٤) ﴿... وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [١٠] ﴿[الحشر].
- (١٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [١٥] ﴿[التوبة].
- (١٦) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [٧] ﴿[التوبة].
- (١٧) ﴿إِنَّهُمْ لِلَّهِ وَحَدُّ فَأُولَٰئِكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢٢] ﴿[النحل].
- (١٨) ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هُنَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ...﴾ [٢] ﴿[الأنبياء].
- (١٩) ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ...﴾ [٦٣] ﴿[الفتح].

و«التشت»<sup>(١)</sup>. وفي مجال الشر أيضًا يصف القرآن الكريم بعض القلوب بأنها قابلة لـ«المرض»<sup>(٢)</sup> و«الزيع عن الحق»<sup>(٣)</sup> و«تقبل الضلال والتمسك به»<sup>(٤)</sup> و«اكتساب الإثم»<sup>(٥)</sup> و«الارتعاب من الحق»<sup>(٦)</sup> و«الاشمئزاز من الحق»<sup>(٧)</sup> و«اكتساب المعاصي»<sup>(٨)</sup> و«تعمد الخطأ»<sup>(٩)</sup> و«الانشغال عن الحق»<sup>(١٠)</sup> و«الغرق = غمرة»<sup>(١١)</sup> و«الحجب = الرين والختم والأكنة»<sup>(١٢)</sup> و«التكبر والتجبر»<sup>(١٣)</sup>.

وتنقسم الوظائف العقلية المنطقية التي ينسب القرآن الكريم إلى القلب القيام بها، إلى ما هو «خير» وما هو «شر». ومن أمثلة ما هو خير؛ «تَقْبَلُ الْوَحْيَ»<sup>(١٤)</sup> و«التفقه»<sup>(١٥)</sup> و«عقل

- (١) ﴿...تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٤] ﴿[الحشر].
- (٢) ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [١٠] ﴿[البقرة].
- (٣) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [٨] ﴿[آل عمران].
- (٤) ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَبْتَلَاهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٥٥] ﴿[النساء]، ﴿...رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [٨٨] ﴿[يونس].
- (٥) ﴿...وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [٨٣] ﴿[البقرة].
- (٦) ﴿سَتَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ...﴾ [١٥١] ﴿[آل عمران].
- (٧) ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ...﴾ [٤٥] ﴿[الزمر].
- (٨) ﴿لَا يُوَازِجُكُمُ اللَّهُ بِالْعَفْوِ فِي آيَاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [٢٢٥] ﴿[البقرة].
- (٩) ﴿...وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [٥] ﴿[الأحزاب].
- (١٠) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَفْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ [٢١] ﴿[المؤمنون].
- (١١) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَفْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ [٢٢] ﴿[المؤمنون].
- (١٢) ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١١] ﴿[المطففين]، ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشًوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٧] ﴿[البقرة]، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ...﴾ [٥] ﴿[فصلت].
- (١٣) ﴿...كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [٣٥] ﴿[غافر].
- (١٤) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٧] ﴿[البقرة].
- (١٥) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [٧٨] ﴿[الأعراف].

الأمر»<sup>(١)</sup> و«التدبر»<sup>(٢)</sup> و«التذكر»<sup>(٣)</sup> و«محل النية: الحسنة والسيئة»<sup>(٤)</sup>. ومن أمثلة الوظائف العقلية السيئة؛ «العمى عن الحق»<sup>(٥)</sup> و«التمرد على الحق»<sup>(٦)</sup> و«الاجتماع على الباطل»<sup>(٧)</sup> و«تبني الباطل»<sup>(٨)</sup>.

سبحان الله، أيقوم القلب بكل هذه المهام، في المجالات العاطفية والعقلية المنطقية، الحير منها والشرير؟ أكاد أجده مسئول عن سلوك الإنسان كله، ذلك السلوك الذى يدخله الجنة أو يورده المهالك. والغريب - بعد ذلك - معظم المهتمين بدراسة الذات الإنسانية، سواء من الأقدمين أو المعاصرين، يسقطونه من تصنيفاتهم، ولا يعدونه عنصرًا من عناصر الذات الإنسانية!

## أقسام القلوب

تبعًا للصفات التى ذكرها القرآن الكريم، والتى طرحنا فيها سبق أمثلة منها، يمكن تقسيم القلوب إلى أربعة أنواع:

### ١ - قلوب المؤمنين:

جاء وصف قلوب المؤمنين فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة بصفات عديدة، مدخلها الطُّهر، فشهادة التوحيد تطهر القلوب من رجس الوثنية ومن دَنَس الشرك، فإذا أقرت القلوب بالإيمان بـ«لا إله إلا الله، محمد رسول الله» كان فى ذلك حياتها ونورها، فإذا قام العبد بالطاعات صُب فى قلبه أنوارها، فازداد لينًا، وخشوعًا، وإخباتًا، ووجلًا لله رب العالمين.

(١) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج].

(٢) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٦٦﴾﴾ [محمد].

(٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

(٤) ﴿...وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب].

(٥) ﴿...فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج].

(٦) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ. وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنفال].

(٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة].

(٨) ﴿...وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران].

## ٢ - قلوب الكفار والمنافقين:

وهذه القلوب تتدرج في الضلال، حتى تصبح قلوباً «أقسى من الصخر»، وذلك لمرضاها وبعدها عن الإيمان، وسيرها في طريق الضلال. ومن هذه المراحل أن تصبح القلوب «في غمرة»<sup>(١)</sup>، كأنها غرقت في بحار اللهو، والغفلة، والحيرة، والضلال. فإذا امتلأت هذه القلوب بالظلام طفق ذلك على خارجها، وتبدأ آثار ذلك بـ«الرين»، فإذا ازداد، «طبع» الله عليها، فصارت «في غلاف مختوم». ثم جاء وصف «الأكنة» وهي الحجب الكثيفة الحائلة بين القلب وبين الهدى، وهذه الصفات تدل على أن مرض هذه القلوب صار خطيراً لا شفاء له، فالظلام عم القلب داخله وخارجه، مما يُسلمه إلى الوصف التالي:

## ٣ - القلب الميت:

وكما أن الأجسام تمرض وتموت، فكذلك القلوب، تمرض بالجهل وتموت بالكفر والنفاق، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ مَدَّيْنِ ۖ﴾ [الروم]. والقلوب الميتة نعمى عن رؤية الحق: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۖ﴾ [الحج] هذا من ناحية الاعتقاد، أما من ناحية التعامل مع الدنيا، فالقلب الميت واقف عند شهواته تملكته الدنيا فأصبح أسيراً لها، استذله الهوى فصار عبداً له، واحتنكه الشيطان فصار له تابعاً وخادماً، واتخذة ولياً ونصيراً، فهو عابد لشيطانه في الحقيقة.

وعن القلوب الميتة يقول صاحب الحكيم<sup>(٢)</sup>: موت القلب سببه ثلاثة أشياء: حب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، وإرسال الجوارح في معاصي الله. وعلامة موته ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فعل من الزلات، وصحبة الغافلين الأموات. وسبب حياة القلب ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله.

## ٤ - القلب المريض:

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا...﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ...﴾ [المائدة].

(١) الغمرة هي الماء الكثير المغمق.

(٢) ابن عطاء الله السكندري، صاحب الحكم العطائية.

ويصف حذيفة بن اليمان رضي الله عنه القلب المريض بأنه: «قلب تمده مادتان، مادة إيمان ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منها». ويشرح ابن القيم رحمته الله هذا الوصف قائلاً: «ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به والإخلاص في تحصيلها، كما أن فيه من الحسد، والكبر، والعجب، وحب العلو، والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه. لذلك فهو ممتحن بين داعيين، داع يدعو إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعو إلى العاجلة، وهو إنما يجب أقربها منه باباً، وأدناها إليه جواراً، فهذا القلب إما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى»<sup>(١)</sup>.

### هل القلب مجرد مضخة للدم؟

ما ذكرناه من وظائف معرفية وشعورية وإيمانية للقلب (منها ما هو خير ومنها ما هو شر) إنما هو نماذج من كثير ورد في القرآن الكريم. وهى في نفس الوقت تمثل كماً كبيراً من الوظائف العليا التي اعتدنا أن ننسبها إلى المخ فقط، فهل كلمة العلم حاسمة في أن القلب لا يشارك في هذه المهام، أم أن هناك جديداً في هذا المجال؟

نجيب عن هذا السؤال المهم، بأنه خلال الربع الأخير من القرن العشرين حدث انفجار معرفي في علوم القلب، فقد توالى الاكتشافات التي أظهرت أن القلب ليس مجرد مضخة للدم فقط، بل إنه يشارك في نشاطات الإنسان المعرفية والشعورية. ويتم ذلك من خلال التأثير على قيام المخ بتلك المهام، أى أن علاقة القلب بالمخ ليست علاقة العبد بالسيّد، بل إن السيادة بينهما تبادلية، هذا بالإضافة إلى دور يمارسه القلب بصورة مباشرة مستقلة عن المخ. ويمارس القلب مهامه تلك من خلال أربع آليات: كهرومغناطيسية، وعصبية، وكيميائية (هورمونات)، وميكانيكية<sup>(٢)</sup>.

وبالرغم من صدور العديد من الدراسات حول هذا الموضوع من عدد من المراكز والشخصيات العلمية المحترمة، فإن ما تجمع حتى الآن هو شواهد تفتح الباب أمام تقبل فكرة وجود دور للقلب في المهام المعرفية والشعورية والإيمانية. ولا شك أن المجال ما زال مفتوحاً للمزيد من الأبحاث قبل وضع منظومة علمية متكاملة حول هذا الموضوع.

(١) إغاثة اللفهان من مصابيد الشيطان لابن قيم الجوزية.

(٢) لتفاصيل هذا الأمر وأدلته العلمية، راجع كتاب «رحلة عقل» الطبعة السادسة - للمؤلف، الفصل السادس - مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٣.

## الروح<sup>(١)</sup>...

الروح أشرف عناصر الذات الإنسانية وأزكاها، وهى خصوصية الإنسان التى يتميز بها على جميع الكائنات. وقد فتح نفخ الروح للإنسان المجالات العلوية، فأصبح قادرًا على التعامل مع عوالم الضمير والإيمان والعدالة والرحمة والجمال والفن، لقد أصبح الإنسان بتلك النفخة سيدًا عالميًا كونيًا أبديًا. وفى ذلك يخاطب الحق ﷻ ملائكته قائلاً: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وبهذه الخصوصية استحق الإنسان الخلافة من الله ﷻ فى الأرض. وقد أدركت خصوصية الروح جميع الديانات والحضارات اللامادية حتى اعتقد الكثيرون أنها هى (وحدها) جوهر الإنسان.

### وما أوتيتم من العلم إلا قليلا

إن قول الحق ﷻ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] لا يعنى النهى عن التفكير والبحث فى الروح وماهيتها، لكن الآية تشير إلى أننا لن نصل إلا إلى القليل عنها، وقد فهم الكثير من العلماء هذا المعنى، فأفردوا كتبًا للحديث عن الروح، وربما كان من أشهرها كتاب «الروح» لابن قيم الجوزية. وسنعرض الآن ما فى أيدينا من هذا القليل:

أولاً: لا شك أن أى تعريف للروح سيكون قاصرًا وعاجزًا عن نقل تصور كامل عنها للإنسان، لذلك نكتفى بالقول إن الروح مَلَكَةٌ لا مادية، تتعلق بجسم الإنسان بأسلوب يختلف من حين لآخر، وهى باقية خالدة بعد موت الجسد.

والدليل على بقاء الروح بعد الموت، قول الحق ﷻ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [١٦] ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

أى أننا مردودون إلى الله ﷻ بعد موت الجسد.

(١) أطلق لفظ الروح فى المقام الأول على النفخة الإلهية فى آدم ثم فى الجنين، ثم أطلق بعد ذلك بأربعة معانٍ أخرى؛ فهو جبريل عليه السلام، وهو الوحي أو القرآن، وهو آية من آيات الله فى خلقه، وهو رحمة الله ﷻ. وأشير هنا إلى ما ذكرته فى نهاية حديثي عن الجسد، من أن الروح ليست هى مصدر الحياة، ولكن الحياة ظاهرة بيولوجية تشترك فيها جميع الكائنات الحية.

ويرى الإمام الغزالي؛ أن معرفة حقيقة الروح ممكنة للخاصة من الأولياء والراسخين في العلم، ويُحرم على من له إمام بشيء من ذلك التصريح به لغير أهله.

ثانيًا: استشهد الفلاسفة المسلمون القائلون بوحدة الوجود على مفاهيمهم (الخاطئة) بقول الحق ﷺ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾ (٧٢) [ص]، ويعتبرون أن إضافة الروح إلى الله ﷻ «روحي» تعني أنها جزء من ذات الله (حاشا لله). ولدفع هذا الرأي نقول: إن الإضافة نوعان؛ إضافة صفات لا تقوم بنفسها، كأن أقول علمي وكلامي وسمعي ويدي، وهذا المعنى ننكره في هذا الموضع، والإضافة الأخرى إضافة أعيان منفصلة، كأن أقول بيتي ورسولي، وهذه هي الإضافة المقصودة في «روحي»، والغرض منها التخصيص والتشريف والتكريم. ومن هذا نستنتج أن الروح ليست قديمة أزلية، فلا قديم أزلي إلا الله، لكنها مخلوقة حادثة، ف﴿...اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (١٦) [الرعد].

ثالثًا: عن أوان نفخ الروح في الإنسان، يقول الحق ﷺ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) [المؤمنون]، معنى ذلك أن نفخ الروح يتم بعد مرحلة معينة من نشأة جسد الجنين. ومن هذه الآيات نفهم أن الإنسان يكون مشابهاً للثدييات في أطوار مبكرة من نشأته، إلا أنه في مرحلة معينة، يختلف عنها ويصبح كائنًا متميزًا (خلقًا آخر)، نتيجة لنفخة الروح التي تتم بعد انقضاء أربعة أشهر من حياتنا الجنينية، كما جاء عن رسول الله ﷺ (١).

لذلك يرى الكثيرون من الفقهاء أن الجنين قبل تمام الأربعة أشهر الأولى في الرحم لا يكون بشرًا، وإذا سقط ومات لا يُصلّى عليه ولا يُطلق عليه اسم. أما بعد نفخ الروح فيكون بشرًا، وإذا أجهض ومات يُطلق عليه اسم ويُصلّى عليه قبل دفنه، لأنه سيُبعث يوم القيامة.

رابعًا: تختلف الآراء حول تعلق الروح بالجسم إلى مجموعتين، الأولى ترى أن الروح «متحيزة» في الجسم، تجرى من الخلايا مجرى الدم. وترى المجموعة الأخرى أن الروح «غير متحيزة»، لكنها تتواصل مع الجسم كما تتواصل الشمس بأشعتها مع الأرض.

(١) في صحيح البخاري ومسلم، حديث رواه زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا، يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح...».

وسواء كانت الروح متحيزة أو غير متحيزة، فإن لها تعلق بالجسم يختلف من حين لآخر، على ست هيئات في فترات متتالية:

- ١ - يبدأ تعلق الروح بالجنين منذ نهاية الشهر الرابع من الحمل، كما ذكرنا.
- ٢ - تعلق الروح بالجسد بعد الولادة، وهو تعلق أتم وأكمل من تعلقها بالجنين، وتتواصل الروح مع الوجود عن طريق الجسم، وعن طريقه تتعلم طوال حياته الدنيوية.
- ٣ - تعلق الروح بالجسد أثناء النوم: عند النوم تفارق الروح الجسد (بشكل ما)، وتُرد إليه (بشكل ما) عند الاستيقاظ. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾ (٤٢) ﴿الزمر﴾ (١).
- ٤ - تعلق الروح بالجسد بعد الوفاة: تظل الروح متعلقة بالجسد بدرجة ما وبشكل لا يعلمه إلا الله ﷻ. (٢)
- ٥ - تعلق الروح بالجسد عند البعث: عندما يبعث الله تعالى الأجساد التي في القبور، تنطلق كلُّ روح إلى جسدها وتتعلق به. والإنسان في آخرته يجادل عن نفسه، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت روحه ونفسه وعقله على اتصال وثيق بجسده وقت البعث والحساب، انظر إلى قول الله ﷻ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥) ﴿يس﴾.
- ٦ - والصواب أن الروح ترافق صاحبها في الجنة، إن كان من أهل الجنة، ولا ترافقه في النار إذا كان من أهل النار.

خامساً: إذا كنا نتلقى مع مَنْ نُحب - ومع مَنْ نكره - في هذه الدنيا، بالأجساد والأرواح، فهل تتلاقى الأرواح إذا فارقت الأجساد؟

(١) للمزيد عن علاقة الروح بالجسد أثناء النوم، انظر الفصل التالي بعنوان «أنا... والموت».

(٢) يُستدل على ذلك بحديث صحيح مسلم في قتلى بدر من المشركين حين كلمهم رسول الله ﷺ قبل دفنهم في القليب وقال لهم: «هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً، فإنني قد وجدت ما وعدني الله حقاً» فقال له عمر: كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها، فقال ﷺ «والذي نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يردوا علىَّ شيئاً». كما ورد عن رسول الله ﷺ «أن الميت يسمع وقع أقدام مشيعيه»، عن حديث رواه الإمام مسلم.

١ - تلاقى أرواح الموتى: ذكر الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «الروح»، أن أرواح الموتى تتلاقى وتتناور وتتذاكر. وقيل للنبي ﷺ: ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا. فإنك إذا مت، رُفِعْتَ فوقنا فلا نراك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦١) [النساء].

٢ - تلاقى أرواح الأموات وأرواح الأحياء: أخبر الله تعالى عن الشهداء أنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وأنهم يستبشرون بما ينقله لهم من لم يلحقوا بهم (نقلًا عن رسول الله ﷺ) من أنه لا خوف عليهم ولا حزن. وذلك يعنى أن أرواح الأموات تتلاقى مع أرواح الأحياء، وغالبًا ما يكون ذلك عند نوم الأحياء ومفارقة أرواحهم لأجسادهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٣١) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ [آل عمران].

كذلك تُعتبر الرؤى الصادقة من أدلة التقاء أرواح الأحياء والأموات في المنام، فيسأل الحى الميت، فيخبره بما لا يعلم. والرؤى الصادقة أقسام، منها إلهام يلقيه الله تعالى في قلب العبد في المنام، ومنها التقاء روح النائم بأرواح الموتى أو الأحياء من أهله ومن غيرهم. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ كثير من الأحاديث الصحيحة التى تتعلق بالرؤى والأحلام.

سادسًا: إذا كان النفى أحد وسائل المعرفة، نشير إلى بعض المفاهيم الخاطئة عن الروح، والتى ذكرها أبو النصر السراج الطوسى<sup>(١)</sup> فى كتابه «اللمع»، عسى أن تقربنا من إدراك الحقيقة:

«وقد غلط أقوام وتاهوا فى الحديث عن الروح؛

فقوم قالوا: الروح نور من نور الله، فتوهّموا أنه نور ذاته فهلكوا.

وقوم قالوا: الأرواح مخلوقة، وروح القدس من ذات الله تعالى.

وقوم قالوا: أرواح العامة مخلوقة، وأرواح الخاصة ليست بمخلوقة.

(١) اللمع لأبى النصر السراج الطوسى (٥٥٤ - ٥٥٥ هـ)، أعد الكتاب الإمام الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق رحمه الله. وفى مقدمة الكتاب، يصف الدكتور عبد الحليم محمود السراج الطوسى بأنه: أعظم مؤلف صوفى فى تاريخ التصوف.

وقوم قالوا: الأرواح قديمة، إنها لا تموت ولا تعذب ولا تبلى.

وقوم قالوا: الأرواح تتناسخ من جسم إلى جسم.

وقوم قالوا: الروح خلق من النور.

وقوم قالوا: الروح روحانية خلقت في الملكوت، فإذا صفت رجعت إلى الملكوت.

وقال آخرون: الروح روحان: روح لاهوتيه، وروح ناسوتيه».

ثم يضيف الطوسي، «والذى عليه أهل الحق - والله أعلم - أن الأرواح مخلوقة، وهى أمر من أمر الله، ليس بينها وبينه تعالى سبب ولا نسبة، غير أنها من ملكه وطوعه وقبضته، غير متناسخة، ولا تخرج من جسم فتدخل غيره، وتذوق الموت كما يذوق البدن، وتنعم بتنعيم البدن، وتُعذب بعذابه، وتُحشر في الجسد الذى تخرج منه».

## النفس . . .

النفس عنصر من عناصر الذات الإنسانية الخمسة، ولا يخلو فيلسوف من كلام عنها، لأنها أقرب الأشياء إلينا، ومع ذلك فهى شديدة الغموض. وقد اختلف الفلاسفة هل النفس من قوى العقل، أم أن العقل من قواها. واختلفوا؛ هل النفس هى الروح أم أنها جوهر قائم بذاته، واختلفوا.... واختلفوا... واختلفوا...

والنفس في القرآن الكريم وجود غير مادي. وإذا كانت أسرارها من الغيبات، فإن القرآن الكريم يخبرنا الكثير عن دورها وكيفية التعامل معها في ٢٩٥ موضعاً، فكان لها نصيب من الذكر أكبر من الروح بكثير. وبالرغم من ذلك، تتباين آراء علماء الدين - مثل الفلاسفة - حول النفس تبايناً كبيراً؛ لذلك سنركز هنا على الخطوط العريضة حولها، وعلى من يبغي المزيد الرجوع إلى الكتب المتخصصة.

## النفس والروح؛ ثنائية أم واحدة؟

يشير القرآن الكريم (والأحاديث النبوية الصحيحة) إلى النفس بمعنيين؛ الإنسان ذاته، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤]، والمعنى الثانى - وهو المقصود في هذا المبحث - أن النفس أحد

المكونات الخمس للذات الإنسانية. وفي هذا المعنى انقسم العلماء إلى قسمين رئيسيين؛ يرى أحدهما أن النفس هي الروح بعد أن نُفِخَتْ في الجسد، فاكتملت صفات أخرى ودورًا آخر. ومن أوائل من تبنا هذا الطرح الفقيه المالكي والعالم اللغوي «أبو قاسم السهيلي»<sup>(١)</sup>. فهو يرى أن الروح عندما لا بست البدن صارت نفسًا، أى صارت جوهرًا آخر، وصارت قابلة للمدح والذم، بخلاف الروح التي هي خير مطلق. ويُشَبَّه الإمام السهيلي تحول الروح إلى نفس بالماء، إذا سَقِيَ به نبات العنب صار عصيرًا للعنب، يتفق مع الماء في أوجه، ويخالفه في أوجه. لذلك فالروح تسمى نفسًا (مجازًا) باعتبار ما ستؤول إليه، والنفس تُسمى روحًا (مجازًا) باعتبار ما نشأت عنه.

أما الرأى الثانى، فيرى أن النفس جوهر مختلف عن الروح، وأنها قد نُفِخَتْ في الجسد عندما نُفِخَتْ الروح، كما أنها تفارقه مع مفارقة الروح. وتبعًا لهذا المفهوم تتحرك النفس بين قطبي الإنسان؛ سماء الروح وأرض البدن، أى أن الروح والبدن مجالان تتحرك بينهما النفس (والعقل أيضًا).

وتحتل آيات القرآن الكريم الرأىين السابقين، رأى السهيلي ونظرية المجالين، ولكنها أكثر انسجامًا مع الرأى الأول، فالقرآن الكريم ما أن يذكر الروح ونفخها في البدن لا يعد يذكرها مرة أخرى، بل حديثه دائمًا عن النفس. كذلك ليس هناك آية واحدة تذكر أن الروح تُقَبَضُ، بل القبض يقع دائمًا للنفس، وما جاء في بعض الأحاديث عن قبض الروح يخالفه القرآن الكريم.

وسواء كانت الروح والنفس ذاتا أصليين مختلفين من البداية، أو كان أصل النفس هو الروح بعد أن نفخت في الجسم، فقد صار بينهما اختلافًا بيّنًا. فالروح خير مطلق بينما قد تكون النفس أمانة بالسوء، وقد تسعد بلذات الدنيا بينما تسعد الروح وتتألق بالحرمان منها. وإذا كانت النفس هي مستودع مشاعر الإنسان ورغباته ودرجة إيمانه، فالروح هي سر حقيقة الإنسان ووعيه وخلوده. وأخيرًا، إذا كانت النفس تُحاسب وتُجَازَى يوم القيامة، فالروح لا تحاسب ولا تجازى، فهي خير محض.

وإذا أردنا أن نحدد الدور الأساسى للنفس تجاه منظومة الذات الإنسانية، لخصنا ذلك في جملة قصيرة، وهي أن:

(١) طرح هذا الفهم في كتابه «نتائج الفكر»، قبل ابن القيم بثلاثمائة سنة، ونقله عنه ابن كثير، ويتبنى هذا الرأى الإمام الشيخ الشعراوي.

## النفس محل التكليف والاختيار

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقال: ﴿...لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَهَا...﴾ (الطلاق: ٧) فالنفس هي محل التكليف الذى لا يكون إلا على قدر ما آتاه الله من الوسع ومن العطاء. ولما كانت النفس هي المُكَلَّفَة صارت المسئولة عن تصرفات الإنسان من أقوال وأفعال، وعلى قدر ما كسبت واكتسبت يكون الثواب والعقاب، كما تشير إلى ذلك الآيات المباركات: ﴿أَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ...﴾ (١٧) ﴿غافر﴾، ﴿...وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥) ﴿آل عمران﴾.

إن الإنسان إذا عرف نفسه، وأدرك قدرها، فقد حاز الخير كله، وإذا غفل عن حقيقتها، فقد ظلمها، وأوردها موارد التهلكة، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (٣٧) ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٣٨) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٣٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (٤٠) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤١) ﴿النازعات﴾، ﴿...فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا...﴾ (١٠٨) ﴿يونس﴾.

ثم إن من اهتدى إلى صفات نفسه من العبودية، وسلك بها لمعرفة كمالات الربوبية، وَجَّهَ الله ﷻ نعمه إليه. فإذا علم الإنسان أنه متصف بالفقر وشدة الحاجة، أدرك أن الله تبارك وتعالى غنى عن العالمين. ومن علم أنه متصف بالضعف وقلة الحيلة، أدرك أن الله هو القوى وأن جميع خلقه مفتقر إليه. ومن كانت صفته الذل أيقن أن العزة لله وحده ولرسوله وللمؤمنين. ومن كانت صفته الخوف علم أن الأمن عند الله، وأن الطمأنينة والسكينة فى تمام العبودية لله. ومن أدرك أن الفناء سيلحقه، أيقن أن الباقي هو الله وحده. وبذلك صار: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»، فمن اهتدى فإنما يهتدى لصفات نفسه ومعرفة ربه، ومن ضل فإنما يضل عن نفسه وعلى نفسه، فيهوى بها فى الجحيم.

## علاقة النفس بعناصر الذات الإنسانية

إذا أردنا أن نضع تصورًا إسلاميًا لعلاقة النفس بباقي عناصر الذات الإنسانية، وجدنا أن الدنيا قد مُلئت بالمتاع الذى تعددت صورته، وتوجهت إليه النفس. فالعين تشاهد وتراقب صور الجمال المرئى، والأذن تستقبل صور الجمال السمعى، وكذلك الذوق، واللمس، وحاسة الشم، وتصيب جميع هذه المشاهدات فى النفس فتتفاعل بها وتتأثر، فيُنتِج ذلك «عزماً» تبعاً لهوى

النفس ورغباتها، وتمرره «كخاطر» إلى القلب. والقلب إما قلب سليم في حضور مع الله وعلى ذكر وطهارة، أو قلب مُغلّف بآثار الذنوب وظلمات المعاصي. ويصل ما تجمع في القلب من خواطر النفس إلى العقل، فإما يجد القلب عند العقل ما يعقل به النفس ويردها عن هواها، أو يجد تشجيعاً وتأيداً لخاطر النفس، وتذليلاً للصعاب التي تعترض طريق المعصية، ومن هنا ينتقل العزم إلى مرحلة «إرادة» ثم «تنفيذ» الفعل، فتأتى الأوامر والتعليمات من العقل مطابقة لما استقر عليه القلب.

وملخص ذلك أن الإنسان يعلو على جسده بنفسه ثم قلبه، ويعلو عليها بعقله، ويعلو على عقله بروحه، وتظل هذه العناصر المكونة للذات الإنسانية الواحدة في تدافع لا ينفصم أبداً.

### صور من معاصي النفس

وبين القرآن الكريم، أن النفس تقترف العديد من المعاصي، ينجح العقل في كبح بعضها، ولا ينجح مع البعض الآخر. وعقيدتنا أن الحسنة عطاء من الله، بينما النفس مصدر السيئات، وهى التى تكتسبها؛ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ...﴾ (٧٩) [النساء]، وبالتالي يعود الوزر عليها؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ...﴾ (١١١) [النساء].

فالنفس هى محل الكبر والعتو؛ قال تعالى: ﴿... لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (٦١) [الفرقان]. والنفس محل الهوى والرغبات والشهوات؛ قال تعالى: ﴿... إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ...﴾ (٢٣) [النجم]. لذلك فهى التى تسول لصاحبها المعاصي؛ قال تعالى: ﴿... وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (٩٦) [طه]. كذلك فهى أداة المراودة؛ قال تعالى: ﴿وَرَزَوْتَهُ أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ...﴾ (٢٣) [يوسف].

ومن أشد الآثام ظلم المرء لنفسه، والشرك أكبر الظلم؛ قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ...﴾ (٣٥) [الكهف]. وتعدى حدود الله من أكبر صور ظلم المرء لنفسه، قال تعالى: ﴿... وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ...﴾ (١) [الطلاق].

وكذلك نجد النفس شحيحة بخيلة؛ قال تعالى: ﴿... وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَجْعَلْ عَن نَفْسِهِ...﴾ (٣٨) [محمد]، وقد جعل الله تبارك وتعالى النجاة في توقي الشح؛ قال تعالى: ﴿... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) [الحشر].

## أثر الطاعات على النفس

تعود كل أعمال الخير التي يتزكى بها المرء على نفسه؛ قال تعالى: ﴿...وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝١٨﴾ [فاطر]. كذلك فإن شكر الإنسان لنعم الله ﷻ يعود أثره على النفس، قال تعالى: ﴿...وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رِبِّي عَنِّي كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل].

وثواب الجهاد وأثره لا يعود على الأمة الإسلامية ككل ولا على عزة الأوطان فقط، وإنما يعود أيضًا على النفس، فللنصر ورفعة الإسلام حلاوة، ولهزيمة الباطل وذل أتباعه فرحة، كما أن للمجاهدين المكانة العليا والمنزلة السامية في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت].

وكان المسلم قد اشترى جنة الله تعالى ببيعه نفسه وماله لله تعالى؛ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ۚ...﴾ [التوبة]، فالشكر، والجهاد في سبيله، وتركية النفس عن أدرانها، والإيثار، تجعل الإنسان يشري<sup>(١)</sup> نفسه ابتغاء مرضات الله، ولذلك كان ثواب تلك الطاعات الجنة.

## سنة الله مع النفس البشرية

لم يترك الله تبارك وتعالى الإنسان منفردًا ضعيفًا مع نفسه تأمره بالسوء فيستجيب لها، بل لقد وضع فيه فطرة البحث عن الحق وأخذ عليه العهد بالإقرار بالربوبية، ثم عززه وأثار له الطريق، وأرسل له الأنبياء والمرسلين، يلقون الضوء على جوانب الحياة، حتى يأخذ الإنسان بأسباب نجاته، ولا يتوه في شعب الضلال، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ...﴾ [الأنعام].

كما بين الله تبارك وتعالى للإنسان ما يرتضيه لعودة المذنبين إلى عفوه وكرمه بعد إعراضهم عنه، فجعل التوبة والاستغفار من أكد الطاعات المقربة إليه والتي تفتح أبواب المغفرة والرحمة على عباده؛ فيقول عز من قائل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٠﴾ [النساء]، كما لم يُقنط الله ﷻ من أسرف على نفسه، ولم يرده عن بابه، ولم يطرده من جنانه، بل جعل له سبيلًا إلى مغفرته ورضوانه؛ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ

(١) يشري بمعنى يبيع، أى عكس يشترى.

يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ  
الرَّحِيمُ ﴿٥٢﴾ [الزمر].

## عوالم ومراتب النفس

كتب الإمام ابن قيم الجوزية عن النفس، وقال: إن للنفس أربع دور، كل دار منها أعظم من التي قبلها:

الدار الأولى: الجنين في بطن أمه.

الدار الثانية: الدار الدنيا، التي تكتسب فيها النفس الخير والشر، والسعادة والشقاء.

الدار الثالثة: دار البرزخ، وهي أوسع من دار الدنيا وأعظم.

الدار الرابعة: الدار التي لا دار بعدها، دار القرار والأجر، وهي الجنة أو النار.

والله تعالى ينقل النفس من هذه الدور، دارًا بعد دار، ولها في كل دار حُكْم وشأن، غير شأن الدار الأخرى.

فالنفس في دار الحياة الدنيا، تكتسب سبع صفات، تدخل في صفة وتخرج من أخرى، تتدرج من مرتبة إلى مرتبة، أو قل سبعة أحوال، تخرج من حال وتدخل في حال أخرى.. وهذه الأحوال السبع: الأمارة، واللومة، والمُلَهمة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية، والكاملة. أما في البرزخ فليس للنفس هذه الأحوال والصفات. وأما يوم القيامة فتكون نفسًا مطمئنة أو راضية مرضية، وهي نفوس أصحاب الجنة، أو تكون نفسًا مجادلة، تجادل عن نفسها، وهذه نفس أهل المعاصي.

وقد فَصَّل القرآن الكريم ثلاثًا من هذه المراتب، وهي:

١ - النفس الأمارة بالسوء: قال تعالى عنها: ﴿... إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ...﴾ ﴿٥٢﴾

[يوسف]، وهي أزدل أنواع النفس، فهي تدفع صاحبها إلى الإضرار بالغير، والإفساد في الأرض. وصاحب النفس الأمارة بالسوء إنسان صار الشيطان له قريبًا، يلهيها ويزين لها الخطأ، ويكره لها الصواب، ويفرش لها طريق طاعة الله بالشوك، ويفرش لها طريق المعاصي بالورد، فصارت تطيعه ولا تعصى له أمرًا.

٢ - النفس اللوامة: قال تعالى عنها: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ۖ﴾ [القيامة]، وهى نفس أشرف من الأولى؛ لأنها تندم وتلوم صاحبها على ما صدر منه من المعاصي.

٣ - النفس المطمئنة: قال تعالى عنها: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر]، وهذه أشرف النفوس الثلاثة وأعلاها؛ لأنها صارت نفساً مستقرة ثابتة على الحق، لا يخالجها شك؛ فقد استنارت بنور الإيمان، وتحلت بمكارم الأخلاق، وتحلت عن الأخلاق الذميمة. واطمئنان النفس يستمر ويزداد نوراً وأمناً بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد]، ويصحب اطمئنان القلوب اطمئنان النفوس والعقول.

وذكر الإمام أبو حامد الغزالي، أن للنفس الأمانة بالسوء أربعة ميول مختلفة، تؤدي بالإنسان إلى اختلاف تصرفاته، واختلاف ردود أفعاله. وهذه الميول هي:

- ١ - نفس ذات ميول عدوانية، يميل صاحبها إلى العدوان على غيره.
  - ٢ - نفس ذات ميول بهيمية، يميل صاحبها إلى إشباع غرائز بدنه الحسية البهيمية.
  - ٣ - نفس ذات ميول تسلطية، يميل صاحبها إلى الكبرياء والغطرسة، وإلى حب الرياسة والتسلط على غيره.
  - ٤ - نفس ذات ميول شيطانية، يميل صاحبها إلى كراهية غيره من الناس وبغضهم، دون سبب معقول يدعو إلى ذلك.. بل ويتمنى الإضرار بالغير.
- وأصحاب تلك النفوس يثورون ويغضبون إذا لم يتحقق لهم مرادهم، ويهدأون ويستريحون إذا تحقق لهم ذلك.

ويرى الإمام أبو حامد الغزالي أن النفس البشرية تنتقل بين الدرجات والأحوال. فقد تسمو النفس الأمانة بالسوء، فتصير نفساً مطمئنة حيناً، وقد تصير نفساً لوامة حيناً، وقد تظل كما هي أمانة بالسوء، فالنفس البشرية لا تثبت على حال إلا إذا أراد الله تعالى لها الثبات.

## القارئ الكريم

لعلك توافقتني (بعد تلك الرحلة) أن فهم الذات الإنسانية لا يمكن أن يتم من خلال النظرات الجزئية للفرق المختلفة المهتمة بالإنسان، فللماديين رؤية (تركز على الجسد) ولل فلاسفة

رؤية (تركز على العقل) ولعلماء النفس رؤية، وللمهتمين بالدراسات الروحية رؤية. ولا شك أن الطرح الحقيقي والشامل للذات الإنسانية هو طرح الله ﷻ الذى لا تتوقف صلته بالذات عند إنشائها، بل يتابعها فى حياتها، ويكلفها، ويحاسبها، ويجازيها.

ويعتبر حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي أن حقيقة الذات الإنسانية هى فقط المكوّن الغيبى، وأن الجسد دابتها وليس عنصراً أساسياً فيها. كما يرى أن النفس والروح والعقل والقلب شىء واحد فى الحقيقة، يختلف بالاعتبار. فإذا نظرنا إلى حياة البدن فهى الروح، وإذا نظرنا إلى الشهوة فهى النفس، وإذا نظرنا باعتبار آلة الفكر فهى العقل، وإذا نظرنا إلى موضع المعرفة فهى القلب.

ولعلك - قارئى الكريم - قد استتجت من قراءتك لهذا الفصل، نقاط اختلافنا (على قلة شأننا) مع طرح شيخنا وأستاذنا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، وغيره من العلماء ممن يتبنون نفس الرأى.

فالإنسان - كما طرحنا - كائن حى عاقل مدرك، خالد أبدي، لا يفنيه الزمن. وهو كائن ثنائى، أنشأه الله ﷻ من مكوّن غير مادى (الروح - النفس - العقل - القلب) ومكوّن مادى (الجسد) دائم التجدد فى الدنيا، ثم يتجدد فى بداية الحياة الآخرة.

بذلك فالذات الإنسانية مكونة من خمسة عناصر أساسية، يختلف كل منها عن الآخر. فالنفس فيها النزاع النفسية، سواء كانت خيراً أم شراً، وقد تكون نفساً مطمئنة، أو نفساً لوامة، أو نفساً أمارة بالسوء.. وهى التى تفعل الخير وتفعل الشر، وهى التى تُحاسب. والقلب، قريب من النفس فى تباين نزعاته وأحواله؛ وإن كان للنفس أشواق ليست للقلب، كذلك نُسبت للقلب فى القرآن الكريم صفات تُعجز عن الحصر ولا تتصف بها النفس.

أما العقل، فهو الذى يوجه النفس، ويجعلها تختار بين البدائل، وتتعرف على الخير والشر، والحلال والحرام. فالعقل هو مناط التكليف فى الإنسان، ولولاه ما كان الإنسان مكلفاً بل صار مثل الدواب. أما الروح فهى الخير المطلق لا تخضع للمحاسبة والجزاء، وهى سر الخلود.

ويمكن تلخيص نظرتنا للعلاقة بين هذه العناصر الخمس للذات الإنسانية، فى أن جوهر الذات الإنسانية هو النفس، وأن الروح والعقل والقلب هى قوى النفس اللامادية، وأن الجسد هو قواها المادية.

ونختتم طرحنا هنا برأى طريف لبعض الحكماء؛ فهم يرون أن للإنسان خمسة أعمار؛ الأول «عُمر الميلاد» كما يحدده تاريخ ميلاد الإنسان. والثانى «عُمر الجسم» تبعًا للحالة الصحية لمختلف أعضائه، فُرب شخص عمر ميلاده ستون عامًا أما حالته الصحية فتعادل حالة رجل فى الأربعينيات. والعمر الثالث هو «عُمر العقل» ويحدده ما اكتسبه الإنسان من خبرة ومعرفة وحكمة فى حياته. ثم «عمر القلب»، ويتوقف على إقبال الشخص على الحياة وما يعتمل فى قلبه من مشاعر، حتى قالوا الشباب شباب القلب.

وأخيرًا يأتى «عُمر الروح» الذى لا يتقدم بتقدم الأعمار السابقة، فالروح خالدة لا يؤثر فيها مرور السنين، بل تزداد تألقًا بمرور الوقت وتَقَدُّمُ العناصر الثلاثة السابقة فى العمر، إذ بتقدم عمر الميلاد تضعف هذه العناصر التى تمثل حُجُبًا على الروح. وبهذا يصبح لكل عنصر من عناصر الذات الإنسانية عمره الخاص به.

\*\*\*

obeikandi.com

## الفصل العاشر

### أنا .. والموت

- مفهوم الموت في الحضارات الإنسانية

- الطب والموت

- مستويات موت المخ

- حقيقة الحياة بعد موت المخ

- التوصيف الطبى لمراحل الموت

- الدين والموت

- الحياة غير الروح

- حياة الإنسان بالمنظور الدينى

- موت الإنسان بالمنظور الدينى

- الفرق بين الوفاة والموت

- أعلنونى مَيِّتًا

- رأى الإسلام بخصوص موت المخ

- تأملاتى مع الموت

- حقيقة الموت

- أنا بعد الموت

- الحياة فى البرزخ

- أنا فى الحياة الأخرى

- طبيعتى فى الجنة

- القارئ الكريم

obeikandi.com

لا شك أن الموت حق<sup>(١)</sup>، وأنه مصير كل حي ولو كان رسولاً أو ملكاً مقرباً، وهو يصرع الجبابرة بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام، ويقهر المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء بسواء. وإذا حضرت ساعة الموت فلا دافع لها، ولا رجعة إلى الحياة من بعدها، ولا يمكن لمخلوق - أيّا كان - أن يُقدّم لحظة الموت أو يؤخرها عما قدره الله لها: ﴿... فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُّوْنَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١١) [النحل].

وقد كان الرسول ﷺ يحض دائماً على ذكر الموت؛ «أكثرُوا ذكرَ هَازِمِ اللِّذَاتِ»<sup>(٢)</sup>، ذلك لأن المؤمن الذي يرقب الموت تكون أعماله نقية طاهرة؛ لأنه يعلم أنه مُقبل على الله تعالى لا محالة، وأن الله يرصد أعماله ويحصيها عليه. ولكن ينبغي أن ندرك أن ذكر الموت والاستعداد له لا يتعارض مع الدعوة إلى عمارة الكون ودفع عجلة الحياة، فعن الرسول ﷺ أنه قال: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»<sup>(٣)</sup>.

وينظر العلم المادى إلى الإنسان باعتباره جسداً تدب فيه الحياة، التي هى ظاهرة بيولوجية صرفة. كما يفسر العلم إدراكنا لذواتنا الإنسانية، وجميع ما تقوم به هذه الذوات من مهام، بأنه راجع لنشاط أنماخنا المادية فقط، ولا يشارك فيها عنصر غيبي (الذى هو الروح عند المتدينين).

أما المنظور الدينى، فيرى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق جسد آدم من عنصر مادى هو مادة الأرض، ثم سَوَّاهُ؛ أى أمدّه بالإمكانات الجسدية التى تؤهله لنفخ الروح فيه ليتحمل الأمانة، وأهم هذه المؤهلات هو المخ المتطور الذى يُظهر أهم أثر من آثار نفخ الروح فى الإنسان وهو العقل المفكر الذى يَعْمُرُ الأرض، ويتعرف على الله سبحانه وتعالى.

(١) مراجع هذا الفصل: كتاب «الوفاة الإكلينيكية وعلاقتها بخروج الروح» للأستاذ د. صلاح الدين سند، أستاذ أمراض النساء والتوليد، بكلية الطب، جامعة القاهرة.  
كتاب «رحلة فى الملكوت» للأستاذ د. عماد الشربيني (رحمه الله) عميد كلية الحقوق ونائب رئيس جامعة طنطا سابقاً.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى وصححه الألبانى.

(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد.

## مفهوم الموت فى الحضارات الإنسانية

رغم أن الناس يعرفون الموت والحياة بالمعايشة والملاحظة، إلا أن تعريف الموت - مثل تعريف الحياة - يكتنفه كثير من الصعوبات. مع ذلك فقد اتفقت جميع الحضارات الإنسانية بما فيها المصرية القديمة والبابلية والآشورية والصينية والهندية واليونانية، وكذلك الديانات الساموية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، فى أن الموت يصحبه مفارقة الروح للجسد.

وقبل تطور الحضارات الإنسانية كان الإنسان البدائى مقتنعاً بأن لكل كائن حى حياة أخرى دفينه فى جوفه تنفصل عن الجسد عند الموت أو النوم، وقد عزز تلك الفكرة أنه رأى فى منامه بعضاً ممن ماتوا. وكان الإنسان البدائى يخشى أن تعود روح الميت وتصب لعنتها عليه، فكان يدفن مع الميت سائر حاجاته وألوان الطعام، أو يُترك للميت الدار التى مات فيها، وينتقل هو إلى دار أخرى. وكان بعضهم يُخرج الجثة من خلال فتحة يُحْدِثها فى الجدار، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة لكى تنسى الروح موضع مدخل الدار فلا تعاودها أبداً.

وجاء فى بعض كتب الهند القديمة: «لا يُوقَظَنَّ نائمٌ إيقاظاً مفاجئاً؛ حتى لا تضل الروح طريقها إلى جسدها». وذلك يدل على أنهم اعتقدوا فى مغادرة الروح للجسد عند النوم كما تغادره عند الموت.

ويعتقد الهنادكة<sup>(١)</sup> والبوذيون<sup>(٢)</sup> والشتو<sup>(٣)</sup> أن الروح تظل حبيسة فى الجمجمة عند الموت، وأنها لا تنطلق إلا بعد حرق الجثة وانفجار الجمجمة، ويساعد اللهب المتصاعد الروح التى تتحرر على الصعود لأعلى. ثم إن الهنادكة والبوذيين يعتقدون بتناسخ الأرواح، وأن الروح الشريرة تُعاد فى جسد حقير مثل الكلب والخنزير، وتظل فى تلك الدوريات حتى تتطهر، بينما تنتقل الروح الصالحة فى الأجساد الخيرة. وتصل الروح إلى السعادة الأبدية المطلقة، بالتحاقها بالروح الكلى (الإله) كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط، وهى ما يطلقون عليها حالة «النيرفانا».

(١) الهندوسية، ديانة يعتنقها قرابة مليار إنسان، يعيش معظمهم فى شبه القارة الهندية.

(٢) البوذية، هى وسط بين الدين والفلسفة، وتنتشر فى الصين وبورما وتايواند، ونيبال والتبت وسيلان.

(٣) الشنتوية، ديانة اليابان، وتقدس قوى الطبيعة والوطن والإمبراطور والأبطال القوميين.

وإذا كانت الحضارات الإنسانية والديانات المختلفة قد اتفقت على مغادرة الروح للجسد عند الموت، فقد اختلفت اختلافات شتى في كيفية خروج الروح وخلوصها من الجسد، وهل تعود إلى هذا الجسد أم تعود إلى جسد آخر؟

أما الملحدون بشكل عام فيعتقدون أن الموت يؤدي إلى فناء الجسد والنفس، ويؤمن بعض فلاسفتهم بـ«فلسفة التلاشى» التي تعتبر النفس مؤلفة من ذرات شأنها شأن الجسد، وعند الموت وبعد تحرر النفس من الجسد فإن كليهما يفسد، وتنحل وتتبعثر ذراتها ضمن الدورة الشاملة الكبرى للطبيعة؛ أى أن النفس تتبدد عند الموت.

## الطب والموت

نحتاج قبل طرح نظرة الإسلام إلى الموت أن نتعرف عليه من وجهة النظر الطبية، ونمهد لذلك بوقفة مع علم الفسيولوجيا، المختص بدراسة وظائف أعضاء جسم الإنسان:

يحتوى جسم الإنسان على عدد من الأجهزة تُعرف بالأجهزة الحيوية، التى إذا توقف أحدها عن العمل مات الإنسان خلال دقائق قليلة. وأهم هذه الأجهزة ثلاثة، وهى:

١ - الجهاز التنفسى، الذى يستخلص من الهواء المحيط بنا الأكسجين اللازم لحرق الغذاء، لإمداد أنسجة الجسم وخلاياه بالطاقة الضرورية للحياة.

٢ - القلب، الذى يضخ الدم لتوصيل الأكسجين والغذاء اللازمين لحياة جميع أعضاء الجسم.

٣ - المخ، الذى يعطى الأوامر لحدوث التنفس وتنظيم خفقان القلب، بالإضافة لوظائفه العضوية والعقلية والنفسية الأخرى.

لذلك:

أ) إذا توقف التنفس، تموت جميع أعضاء الجسم (بما فيها المخ والقلب).

ب) إذا توقف القلب، تموت جميع أعضاء الجسم (بما فيها المخ وعضلات التنفس).

ج) إذا توقف المخ، يتوقف التنفس، ويضطرب عمل القلب، ثم يتوقف.

من ذلك نرى أن حياة جسد الإنسان تعتمد على هذه الأجهزة الثلاثة الحيوية (الحياتية) الأساسية التى تعمل بطريقة تكاملية. لذلك يؤدي توقف الحياة فى أى منها إلى توقف الحياة

فى الجهازىن الآخرىن؁ وبالتالى موت الجسم ككل. وىمكن تشبىه علاقة هذه الأجهزة الثلاثة بآىاة الإنسان بكرسى ذى ثلاثة أرجل؁ إذا كُسرَت إحداها سقط الكرسى.

وفى أثناء عملىات القلب المفتوح؁ يؤقف القلب لمدة ساعتىن أو أكثر؁ ولا يعنى ذلك أن الشخص قد مات؛ فوظيفة القلب تقوم بها مضخة تضخ الدم فى جهاز يقوم بوظيفة الرئة. ثم يُعاد الدم إلى الجسم؁ وبالرغم من توقف القلب والتنفس فإن هذا الشخص حى بكل تأكيد.

## مستوىات موت المخ

يُفرّق الطب بىن موت الأجزاء المختلفة للمخ<sup>(١)</sup> كالتالى:

### ١ - موت القشرة المخىة؁ مع بقاء جذع المخ سليماً<sup>(٢)</sup>: Cerebral Death

يؤدى ذلك إلى غىوبة تامة؁ ولكن يظل الإنسان يتنفس وقلبه ينبض؁ وىستطىع أن يفتح ويغمض عىنيه ويحرك عضلات وجهه كرد فعل انعكاسى للمؤثرات المختلفة؁ كما ىستطىع أن ىبتلع الطعام. وهذه الحالة لا ىعتبرها الأطباء موتاً للإنسان؛ لأنه ىتنفس بدون أجهزة صناعىة؁ وقلبه ينبض بدون الاعتماد على العقاقىر. وقد أفاقت بعض الحالات من هذه الغىوبة بعد فترات قصُرت أو طالت. وىعىش الإنسان إذا أفاق بعجز مستدىم حسب المراكز المخىة التى ماتت؛ مثل الشلل الكلى أو الجزئى؁ أو عىوب فى النطق أو قصور الذاكرة أو غيرها.

### ٢ - موت جذع المخ: Brian Stem Death

يؤدى ذلك مباشرة إلى الموت؁ بسبب توقف التنفس والدورة الدموىة. وإذا تدخلنا سرىعاً واستطعنا المحافظة على خفقان القلب بواسطة عقاقىر تحقن ورىدياً طوال الوقت بالإضافة إلى أجهزة التنفس الصناعى التى تضخ الأكسجىن إلى الرئتىن؁ يظل هذا الإنسان فى غىوبة؁ وذلك لانقطاع الإشارات العصبىة التى ىرسلها جذع المخ إلى قشرة المخ لىشارك بها فى منظومة الىقظة؁ وىظل هذا الإنسان معتمداً على الأجهزة والعقاقىر التى إذا توقفت توقف التنفس والقلب.

Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by (1) Lippincott Williams and Wilkins, philadelphia USA.

(٢) «القشرة المخىة» فى مخ الإنسان هى المسئولة عن نشاطاته الحركىة والحسىة والعقلوىة ووعىه. بىنما ىحتوى «جذع المخ» على المراكز الحىوىة المسئولة عن تنظيم العملىات الحىاتىة الأساسىة للإنسان؁ كالتنفس ووظائف القلب ودرجة حرارة الجسم وغيرها.

### ٣ - موت المخ الكلى: Whole Brain Death

يؤدي هذا بالطبع إلى الموت مباشرة، إلا إذا تدخلنا أيضًا سريعًا بأجهزة التنفس الصناعي والعقاقير التي تحافظ على خفقان القلب، وفي هذه الحالة يظل الإنسان في غيبوبة تامة وشلل، ويظل معتمدًا كليًا على الأجهزة والعقاقير التي إذا توقفت توقف التنفس والقلب. وتُسمى هذه الحالة «موت الدماغ أو المخ» أو «الموت الإكلينيكي» وهناك شبه إجماع بين الأطباء على اعتباره موتًا للكائن الإنساني.

### حقيقة الحياة بعد موت المخ:

تعتمد حياة القلب وبعض أعضاء الجسم بعد موت المخ الكلى (وأيضًا موت جذع المخ) على أجهزة طبية خاصة وعقاقير معينة، ولا تُعتبر حياة إنسانية، فهي حياة صناعية بدون روح<sup>(١)</sup>. بل إن هذه الحياة لا يمكن مقارنتها بحياة الجنين داخل الرحم قبل نفخ الروح فيه، وذلك لأن مخ الجنين يكون حيًا، كما أن حياة أعضائه تعتمد على مدد وتعليمات تأتيه من جسم الأم الحى، وليس من أدوية وأجهزة صناعية. وأخيرًا فإن حياة الجنين عادة ما تتطور للحياة الإنسانية الكاملة، بينما توقّف المخ التام عن العمل توقف نهائي لا رجعى، ويعقبه دائمًا فشل باقى الأجهزة الحيوية، ولا يمكن للحياة ولا للروح أن تعود إليه مرة أخرى.

ويطلق الطب الحديث على بعض حالات موت المخ الكلى تعبير «الحياة النباتية Vegetative Life»، ولكن الحقيقة أن الحياة الصناعية بعد موت المخ لا ترقى إلى حياة النبات الذاتية، التي تعتمد حياة أعضائه المختلفة بعضها على بعض؛ بينما هذه الحياة لا تقوم بذاتها، ولا يكمل بعضها بعضًا. وإنما هى خلايا وأعضاء منفردة تنظم عملها عقاقير وأجهزة طبية.

### التوصيف الطبى لمراحل الموت

ذكرنا أن الطب يعتبر الموت فشل الجسم كجهاز تكاملى، وعلامته التوقف النهائي للأجهزة الحيوية فى الجسم، وأهمها الدورة الدموية والتنفس والجهاز العصبى. ويسجل الطب مرحلتين للموت:

(١) سنشرح هذا المعنى بعد قليل.

## المرحلة الأولى: «الموت الجسدى أو الموت الإكلينيكي» Somatic Death

وهو نفس المفهوم السابق، أى توقف أجهزة الجسم الحيوية عن العمل، فلا يعود الإنسان إلى الحياة مرة أخرى. وعلامات هذه المرحلة: توقف التنفس، توقف نبضات القلب، انفتاح العينين واتساع وتوقف حركة حدقة العين، ارتخاء عضلات الوجه مما يسبب سقوط الفك السفلى، وبعد فترة يحدث تسطح أجزاء الجسم الملاصقة للسريـر أو للأرض، ثم يلى ذلك برودة الجسم حتى تصبح درجة حرارته معادلة لدرجة حرارة الوسط المحيط، وتغير لون الجسم إلى لون أزرق نتيجة لركود الدم فى الشعيرات الدموية.

## المرحلة الثانية: «الموت الخلوى أو الموت الجزيئى» Molecular Death

يعقب الموت الجسدى تحلل الخلايا والأنسجة وأعضاء الجسم كل على حدة. وتستمر أعضاء الجسم وخلاياها فى الحياة (بدون تواصل بين بعضها البعض) لفترات تختلف من عضو لآخر، حتى يتم استهلاك المتبقى داخلها من الغذاء والأكسجين. فخلايا المخ تستمر فى الحياة حتى سبع دقائق، وخلايا القلب حتى عشرين دقيقة، وخلايا الكليتين حتى ثلاثين دقيقة، وخلايا الأطراف (اليدين والقدمين) تستمر فى الحياة حتى ست ساعات، بينما تستمر خلايا القرنية والعظام والأوتار والجلد فى الحياة حتى اثنى عشرة ساعة.

وخلال هذه الفترة، إذا نقلنا أى نسيج أو عضو من هذه الأعضاء قبل موته الخلوى أو الجزيئى إلى جسد إنسان آخر فإنه يستطيع أن يحيا فى الجسد الجديد لسنين عديدة. أى أن لكل نسيج أو عضو فترة صلاحية يمكن استخدامه فيها<sup>(١)</sup>، وإلا تعفنت خلاياه وتحللت إلى عناصرها الأولية. وهذا يثبت أنه برغم توقف الحياة فى الجسد ككائن حى متكامل - وهو ما يطلق عليه الطب «الموت الجسدى» - فإن ذلك لم يأخذ معه الحياة من الخلايا والأنسجة والأعضاء المنفردة، والتى تستطيع أن تكمل حياتها لساعات فى جسد الميت، ثم لسنين طويلة تحت إمرة وفى خدمة جسد وروح جديدين.

(١) مثال ذلك، زراعة «قرنية العين»، فبعد تشخيص الموت بساعات عديدة (تصل إلى اثنى عشرة ساعة) نستطيع أن نأخذ قرنية من جثة الميت، ونقوم بنقلها إلى جسد إنسان آخر يحتاجها، كما يمكن حفظ هذه القرنية كنسيج مستقل لمدة تصل إلى أسبوع أو أكثر فى درجة حرارة منخفضة (أربع درجات مئوية)، بل ونستطيع الاحتفاظ بحيويتها فى مزارع نسيجية مدد طويلة تصل إلى ثلاثين يوماً. وليست القرنية فحسب، بل أصبحت عمليات نقل القلب والكلى والكبد من العمليات الجراحية الشائعة.

## الدين والموت

يبين لنا القرآن الكريم أن «الموت هو المقابل أو النقيض للحياة»، ويظهر هذا جلياً في مقابلة الموت بالحياة في أكثر من ستين موضعاً في القرآن الكريم<sup>(١)</sup>. ومن أمثلة ذلك:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ...﴾ (٢) [الملك].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) [الأنعام].

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (٤٠) [القيامة].

### الحياة غير الروح

نمهد لعرض المنظور الديني للموت بأن نؤكد أن الحياة غير الروح، وحول هذا المعنى قال فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى «إن الذين يقولون إن الحياة هي الروح مخطئون، فالنبات به حياة، يمكن أن نسميها «نامية نباتية»، فالنبات فيه نمو وفيه حركة وفيه أشياء نعرف منها أن النبات حي، وإذا توقفت الحياة فإن النبات يذبل ويموت. والحيوان به حياة (نامية حيوانية)، لكن وظائف هذه الناميات الحيوانية غريزية لا تستخدم العقل في توجيهها، فمثلاً إذا ضربت القطة فلا إجابة لك عندها إلا الخربشة، أما الإنسان فيختار من بين بدائل متعددة باستخدام العقل والفكر».

ويضيف الشيخ الجليل: «إن سر الإنسانية هو زيارة الملك للجنين ونفخ الروح فيه، وهي حمل الأمانة والتكاليف الشرعية، وذلك بالاختيار بعقله بين البدائل المختلفة».

ومما يؤكد الطبيعة المختلفة للروح عن حياة الجسد هو مغادرة الروح للجسد أثناء النوم، وبالرغم من ذلك فالنائم ليس ميتاً، بل إن كل أعضاء جسده في حياة تامة، فهو يتنفس وقلبه ينبض. وقد بين القرآن الكريم والحديث الشريف باللفظ الصريح أن النوم هو شبيه الموت، وأن اليقظة من النوم هي شبيهة البعث، وذلك لكي نتعظ ونوقن بالبعث، ولكي نطبق كثيراً مما يحدث أثناء النوم على الموت. وقد فهم جُل علماء المسلمين من قديم هذا المعنى، واتفقوا على تعريف حالة النوم بأنها حالة «الموت الأصغر»، وأن النوم هو «شقيق الموت».

(١) سواء بالمصدر الصريح، أو المصدر الميمي، أو اسم الفاعل، أو الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

ودليل مفارقة الروح الجسد أثناء النوم نجده في الآتي:

١ - يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٤٢] [الزمر]. وقد اتفق جمهور العلماء على أن الأنفس المذكورة في الآية تعني أرواح الناس، وأن التوفي - كما سنرى بعد قليل - معناه قبض الروح.

٢ - يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ...﴾ [٦٠] [الأنعام].

٣ - دعاء النوم عن الرسول ﷺ «باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»<sup>(١)</sup>. وكذلك دعاؤه ﷺ إذا أوى إلى فراشه: «باسمك اللهم أموت وأحيا»، وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»<sup>(٢)</sup>.

٤ - قصة نوم الرسول ﷺ وأصحابه وهم راجعون من غزوة خيبر حتى طلعت الشمس ففاتتهم صلاة الصبح، فعندما قام قال لأصحابه: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء»<sup>(٣)</sup>.

## حياة الإنسان بالمنظور الدينى

مما سبق، نخرج بأن حياة الإنسان - بالمنظور الدينى - تتكون من مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة خلق جسد الجنين وتسويته ووجود الحياة فى خلاياه، والحياة موجودة فى سائر الكائنات الحية وليست فى الإنسان وحده.

المرحلة الثانية: مرحلة نفخ الروح فى الجنين بعد تسويته، وتستمر حتى وفاته. وهذه المرحلة خاصة بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات.

معنى ذلك أن الحياة والروح أمران ضروريان لحياة الكائن الإنسانى، وكل منهما يؤثر

(١) الحديث: أخرجه البخارى ومسلم.

(٢) الحديث: أخرجه البخارى، ومسلم.

(٣) الحديث: أخرجه البخارى ومسلم.

فى الآخر وىتأثر به. فاكتمال تسوية جسد الجنين وحياته شرط لازم لنفخ الروح فيه، كما أن حياة الإنسان ترتبط بوجود الروح فى جسده فإن غادرته الروح نهائياً توقفت حياة الإنسان.

## موت الإنسان بالمنظور الدينى

وبما أن الموت هو نقيض الحياة، فإنه يتكون أيضاً من مرحلتين، هما:

١- مغادرة الروح الجسد.

٢- توقف الحياة (الموجودة أصلاً فى الجسد قبل نفخ الروح).

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو: عند الموت، هل مغادرة الروح للجسد وتوقف الحياة يحدثان معاً، أم أن أحدهما يسبق الآخر؟

من الأدلة التالية، سنرى أن مغادرة الروح للجسد تسبق توقف الحياة فى الإنسان ككل، وفى أعضائه وأنسجته وخلاياه.

الدليل الأول: هو دليل منطقى، يعتمد على مبدأ أن «نقض البناء يكون عكس مراحل إقامته»، وعند تطبيق هذا المبدأ على مرحلتى خلق الإنسان، نجد أن الجنين منذ كان نطفة هو كائن حى، ثم تُنفخ فيه الروح عند مائة وعشرين يوماً<sup>(١)</sup>، وإذا كان الموت هو نقيض الحياة، فالأرجح أن تغادر الروح الجسد عند الموت أولاً ثم تتوقف الحياة بعد ذلك.

الدليل الثانى: هو دليل تجربى، يعتمد على إمكانية نقل بعض أعضاء الإنسان الحيوية بعد بضع ساعات من موته إلى جسد جديد، حيث تظل حية لسنين طويلة. وهذا يثبت أنه بالرغم من أن الروح قد غادرت الجسد، فإن الأعضاء الحيوية والأنسجة تظل حية لساعات فى جسد الميت مما يسمح بنقلها، أى أن قبض الروح يسبق توقف الحياة.

الدليل الثالث: دليل الرواية، وهو ما يُعرف بـ «أحاديث شخوص البصر عند الموت» وفيها يُخبر الرسول الكريم ﷺ أن البصر عند الموت يتبع - أو يَشْخَصُ - إلى - الروح أو النفس، أى أن الروح تفارق الجسد وهو ما زال حياً، وهى ثلاثة أحاديث:

١ - دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شق بصره (شَخَصَ) فأغمضه. ثم قال: «إن الروح إذا قُبِضَ تبعه البصر»<sup>(٢)</sup>.

(١) بالمعنى، من حديث أخرجه البخارى ومسلم.  
(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه الألبانى.

٢ - قال الرسول ﷺ: «إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر، فإن البصر يتبع الروح...»<sup>(١)</sup>.

٣ - قال رسول الله ﷺ «ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره؟». قالوا: بلى. قال: «فذلك حين يتبع بصره نفسه»<sup>(٢)</sup>. وفي شرح النووي: قول الرسول ﷺ «شَخَصَ بَصْرُهُ»: أى: ارتفع ولم يرتد، وقوله ﷺ «يتبع بصره نفسه»: المراد بالنفس هنا الروح، ويؤكد الحديث أن الموت ليس بإفناء، وإنما هو انتقال وتغير حال وإعدام الجسد دون الروح.

الدليل الرابع: وهو دليل من القرآن الكريم، آيات سورة الواقعة تتحدث عن مغادرة الروح الجسد: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ رِءُوسِهِمْ إِنَّهُمْ لَأُنَاسٌ وَلَهُمْ آجَلٌ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة].

وتبين الآيات حقيقتين:

الأولى: إن الحلقوم هو آخر جزء من الجسد تغادره الروح، وهذا نفهمه من أسلوب التحدى لأى شخص أن يستطيع إرجاع الروح إلى مستقرها داخل الجسد.

الثانية: إذا وصلت الروح إلى مستوى الحلقوم فهي قد تركت مستقرها داخل الجسد، وهذا نفهمه من كلمة «ترجعونها»، فالإرجاع يدل على أنها تركت مكانها الأصلي داخل الجسد. وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة]، ولم يقل مثلاً «ذاهبون»، مما يدل على أن الأرواح ترجع لمكانها الأصلي عند الله ﷻ.

ويقوم الحديث الشريف بتفسير هذه الحقيقة؛ فيبين الرسول الكريم ﷺ أن الروح إذا وصلت الحلقوم فلا تقبل التوبة ولا تقبل الوصية<sup>(٣)</sup>، وقدرة الإنسان على التوبة والوصية تعنى أنه ما زال حياً.

(١) رواه أحمد وابن ماجه، وحسنه الألبانى.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) (أ) جاء في الحديث الشريف: «إن الله ﷻ يقبل توبة العبد ما لم يُغَرِّغْ» الحديث: أخرجه الترمذى، وابن ماجه وأحمد في المسند، وحسنه الألبانى. وقوله ﷻ «ما لم يغرغ»: بمعنى لم تبلغ روحه حلقومه، فإذا وصلت الروح للحلقوم فلا توبة.

(ب) وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أى الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت شحيح تحشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان» أخرجه البخارى. وقد جاء في شرح هذا الحديث الشريف: أوصيت بدفع الحقوق حيث لا تنفع وصيتك، فقد صار التصرف فى مالك للورثة.

ونخلص من هذه الأدلة الأربعة، إلى أن الروح تغادر الجسم قبل توقف الحياة في جسم الإنسان (ككائن حي)، وفي خلايا وأنسجة وأعضاء الجسم منفردة. كذلك فإن الروح تترك مستقرها في الجسد قبل توقف الحياة في المخ وأعضاء التنفس والقلب، وهذه الأجهزة هي الأجهزة الحيوية التي إذا توقف واحد منها عن العمل مات الإنسان.

## الفرق بين الوفاة والموت

من أجل أن نتبين الفرق بين الوفاة والموت بالمنظور الديني، يجب أن نتأمل آيات القرآن الكريم التي جاءت فيها الكلمتان باشتقاقاتها المختلفة<sup>(١)</sup>، وبتأمل هذه الآيات نتوصل إلى ست حقائق توضح الفرق في المعنى بين الكلمتين.

الحقيقة الأولى: يُنسب الموت إلى الإنسان<sup>(٢)</sup> وباقي الكائنات الحية<sup>(٣)</sup> وأيضاً الجمادات<sup>(٤)</sup>.

الحقيقة الثانية: «الوفاة» لا تُنسب إلا إلى الإنسان<sup>(٥)</sup>.

الحقيقة الثالثة: الوفاة أو التوفي ليس هلاك الجسد أو إهلاكه، فالوفاة تحدث أيضاً أثناء النوم<sup>(٦)</sup>:

الحقيقة الرابعة: الوفاة والموت شيان مختلفان، ولما كانت الوفاة هي قبض الروح، فلا بد أن يكون الموت شيئاً آخر<sup>(٧)</sup>:

(١) المصدر والفعل واسم الفاعل.

(٢) ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام].

(٣) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ...﴾ [البقرة].

(٤) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ [البقرة].

(٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل].

(٦) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا فِيمَسِكُ الْآتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].

(٧) ١ - ذُكِرَ الموت في ستين موضعاً في مقابلة الحياة، أما التوفي (قبض الروح) فيقابله (نفخ الروح).

٢ - عند مخاطبتنا الله سبحانه وتعالى طالبين الموت فنقول «توفني» أو «توفنا»، ولم يرد في القرآن لفظ «أمتني» أو «أمتنا»، وذلك تأديباً مع الله، فالإماتة تحمل معنى الهلاك، أما التوفي فهو تحرر من سجن الجسد واللحاق بنعيم الله ﷻ... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف].

٣ - يخاطب الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ بلفظ التوفي فقط ﴿وَأَمَّا زَيْنَبُكَ بَعْضُ الَّذِي نَعُدُّهُم أَوْ تَوَفَّنَا فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس].

٤ - الاستثناء الوحيد في مخاطبة رسول الله ﷺ بلفظ الموت، في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [٣] ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَخُصِّمُوا﴾ [الزمر]. وهذا مقصود، لينقل لنا معنى أن كل شيء هالك إلا وجهه ﷻ.

الحقيقة الخامسة: يتكون الموت من مرحلتين، هما قبض الروح ثم الموت الجسدى<sup>(١)</sup>:

الحقيقة السادسة: الموت (وليس الوفاة) هو المرحلة الأخيرة للإنسان في هذه الحياة الدنيا، لذلك فكل آيات القرآن الكريم التى تذكر فيها أحداث ما بعد الحياة الدنيا تحجى بعد لفظ الموت، وليس لفظ الوفاة<sup>(٢)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرًا من العلماء اتفقوا على إطلاق تعبير «الموت الأصغر» على النوم، والأكثر صوابًا هو تسمية النوم بـ«الوفاة الصغرى» أو «وفاة النوم»، بينما تكون مغادرة الروح النهائية والمستديمة للجسد عند الموت هى «وفات الموت».

يتضح من هذه الحقائق أن التكريم الأساسى للإنسان وما مُحَلَّ من تكاليف شرعية يرجع إلى وجود الروح فيه، لذلك نرى أن الوزر الشرعى الأساسى والرئيسى على جريمة القتل يرجع إلى إزهاق هذه الروح (الوفاة) وليس إنهاء حياة الجسد (الموت)، الأمر المشترك بين جميع الكائنات الحية.

## أُعلنونى مَيِّتًا<sup>(٣)</sup>

إذا كان القرآن الكريم يبين أن الروح تفارق الجسد قبيل الموت، وإذا كان الطب لم يتوصل بعد إلى مفهوم الروح كعنصر غيبى فى الذات الإنسانية، فمعنى ذلك أن كلاً من الدين والطب يعتبران موت الجسد هو نهاية الوجود الإنسانى فى هذه الدنيا. ولما كان الموت يعنى توقف آليات الحياة<sup>(٤)</sup>، فإن هذا أمر مادى يستطيع العقل والعلم الحديث البحث فيه وإدراكه.

(١) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر].

(٢) ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٦٩﴾﴾ [عبس].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف].

﴿أَبْعَدُكُمْ أَكْثَرُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَكْثَرُ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون].

(٣) من ناحية اللغة، مَيِّت بتشديد وكسر الباء تعنى الإنسان القابل للموت، سواء كان حيًّا أو فارق الحياة، وكلنا ذلك الشخص. أما المَيِّت بسكون الباء فهو من مات بالفعل.

(٤) أى توقف قدرة الخلايا على الحفاظ على وجودها، نتيجة لتوقف إمداد الغذاء والوقود والتعليقات اللازمة لعملها، مما يؤدى إلى توقف العمليات الكيميائية داخل الخلايا.

وقد توصل الطب الحديث إلى حقائق هامة بخصوص العلاقة بين موت الإنسان وموت المخ. فقد صار التشخيص المؤكد للموت الكلى للمخ ممكناً، كما أصبح من الممكن أيضاً الجزم بأن توقف المخ الكلى عن العمل (أو موته) هو توقف نهائى لا رجعى، وليس غيبوبة مؤقتة قد يفيق منها الإنسان. وإذا كان جذع المخ هو المتحكم فى وظائف القلب والتنفس، فإن موت جذع المخ يؤدى مباشرة إلى توقفهما، أى إلى الموت.

لذلك أصبح الطب الآن يعتبر أن موت المخ هو موت للجسد أو هو موت الكائن الإنسانى<sup>(١)</sup>. وبالتالي إذا أثبت الطب موت المخ الكلى أو موت جذع المخ بلا رجعة، فقد سبقه مغادرة الروح لجسم الإنسان، وبذلك تكتمل ظاهرة الموت من وجهتى النظر، العلمية والدينية.

ويتم تشخيص موت المخ (أى موت الإنسان) إكلينيكيًا (سريريًا) من خلال ثلاث علامات إكلينيكية [سريرية] يجب أن تجتمع معًا، وهى<sup>(٢) (٣)</sup>:

١ - فقد الوعى، وفقد القدرة العضلية على الاستجابة للنداء على الشخص، وعدم التجاوب مع المؤثرات المؤلمة (مثل وخز الإبر) فى الوجه<sup>(٤)</sup>.

٢ - فقد القدرة على ردود الأفعال المنعكسة اللاإرادية، والتى يتحكم فيها جذع المخ (Brain Stem Reflexes)، وأهمها عدم ضيق حدقة العين عند تسليط الضوء عليها.

٣ - عدم وجود تنفس تلقائى بعد إيقاف جهاز التنفّس الصناعى لمدة ثمان إلى عشر دقائق. وأحياناً، تؤثر بعض العوامل على وظيفة المخ، وتؤدى إلى الإغماء المؤقت، مثل: انخفاض شديد فى درجة حرارة الجسم أو هبوط شديد فى ضغط الدم أو تعاطى أدوية معينة أو حالات السكر الشديد أو انخفاض مستوى سكر الدم. وفى مثل هذه الحالات

---

Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2<sup>nd</sup> edition, 2004, by (١) Lippincott Williams and Wilkins, Philadelphia USA.

Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2<sup>nd</sup> edition, 2004, by (٢) Lippincott Williams and Wilkins, Philadelphia USA.

Brain Death Worldwide: Accepted fact But No Global Consensus on Diagnostic Criteria: Wijdicks (٣) E., Neurology, 58:20- 25, 2002.

(٤) الوجه من المناطق التى يتحكم فى عملها الأعصاب الجُمجُمية التى توجد مراكزها فى جذع المخ.

يلزم التأكد من موت المخ بواسطة «اختبارات إضافية متخصصة»<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن القرآن الكريم لم يتنزل ليعلمنا كيف نحكم على موت الإنسان، وترك ذلك لأهل الذكر وهم الأطباء، وهذا ما قرره مجمع البحوث الإسلامية. ومع ذلك فإن المجمع قد حدد ٤ علامات - استنبطها من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة - يُشخّص وجودها مجتمعة موت الإنسان، وهذه العلامات تتفق مع رأى الطب، وهى:

١ - توقف التنفس. ٢ - إحداد البصر: معناه شخوصه وثبات العينين<sup>(٢)</sup>.

٣ - انفراج الشفتين<sup>(٣)</sup>. ٤ - سقوط القدمين فلا ينتصبان<sup>(٤)</sup>.

### رأى الإسلام بخصوص موت المخ

انعقدت دورتان للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت، الأولى عن «الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها» عام ١٩٨٥ م، والثانية عن «التعريف الطبى للموت» عام ١٩٩٦ م، وقد اعتبرت كلتاهما الإنسان ميتاً إذا توقفت جميع وظائف دماغه نهائياً عن العمل بما فى ذلك جذع المخ.

وهذا أيضاً ما قرّره مجمع الفقه الإسلامى التابع لمنظمة مؤتمر العالم الإسلامى المنعقد فى العاصمة الأردنية عمان عام ١٩٨٦ م، ومجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة عام ٢٠٠٩ م، فقد أفاد المجمعان أنه بعد التداول فى سائر النواحي التى أثّرت حول أجهزة الإنعاش والاستماع إلى شرح مستفيض من الأطباء المختصين، أنه يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المُركّبة على الشخص إذا حكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء بتعطل جميع وظائف دماغه تعطلاً نهائياً لا رجعة فيه، حتى وإن كان بعض الوظائف - كالتنفس والقلب - لا تزال تعمل ألياً بفعل الأجهزة المركبة والعقاقير، ويُعتبر الشخص ميتاً شرعاً بعد توقف التنفس والقلب توقفاً تاماً بعد رفع هذه الأجهزة<sup>(٥)</sup>.

(١) مثل عدم وجود أى ذبذبات فى رسم المخ الكهربائى، واختبارات الجهد الكهربائى المُثار (Evoked Potentials)، وتقنيات التصوير الإشعاعى المتقدمة، خاصة تلك التى تبين عدم تدفق الدم إلى المخ، ويضيف البعض عدم استجابة جذع المخ لحقن عقار الأتروين.

(٢) يحدث ذلك بسبب موت مراكز الأعصاب الجُمجُمية (Cranial nerves) المسئولة عن حركة العين.

(٣) يحدث ذلك بسبب موت مركز العصب السابع من الأعصاب الجُمجُمية المسئول عن حركة الشفتين.

(٤) ويحدث ذلك بسبب فقد ردود الفعل المنعكسة اللاإرادية، وعدم الإحساس بمكان القدمين والمسئول عنه المخ.

(٥) أخذت معظم دول العالم الإسلامى - وغير الإسلامى - برأى الطب فى اعتبار موت الدماغ موتاً للإنسان، ووُضعت القوانين المنظمة لرفع أجهزة الإنعاش المركبة على هؤلاء الأشخاص، كما وضعت القوانين واللوائح المنظمة لنقل الأعضاء منهم. وفى منطقة الشرق الأوسط لم يتبَق سوى قليل من الدول التى لم تضع بعد هذه القوانين كمصر والسودان وليبيا والعراق.

ويضيف د. صلاح الدين سند، مستكملًا جهده الكبير في إخراج دراسته العميقة (الوفاة الإكلينيكية) قائلاً: إنه إذا كانت هذه المؤتمرات الفقهية قد اعتمدت في قراراتها على رأى الطب في اعتبار الشخص ميتاً عند موت الدماغ، فإن إثباتنا سبْق مغادرة الروح لجسد الشخص الميت دماغياً يدعم قرارات هذه المؤتمرات الفقهية، ويساعد أهل وأقارب هذا الشخص على أخذ القرار برفع أجهزة الإنعاش عنه.

## تأملاتى.. مع الموت

لا شك أن ظاهرة الموت أدهشت الإنسان وأربكته منذ وَعَى بذاته، فالإنسان البدائي كان يجد رفيقه الذى يفور جسده بالحركة والحس والنضرة، قد تبدل فى لحظة، وصار جسداً بارداً لاهية فيه، رغم تكامل كل أعضائه وأجزائه. ربما ربط هذا الإنسان بين خفوت الحياة ثم انطفائها فى جسد رفيقه وبين خفوت النار المشتعلة، وربما ربط بين ذلك وبين تصاعد الدخان من النار إلى السماء قبيل انطفائها، ومن هذا الربط ربما اعتقد الإنسان البدائي أن داخله عنصراً خفياً يمكن أن يفارق جسده ويتصاعد إلى السماء (كالدخان)، وأن هذه المفارقة هى التى تؤدى إلى الموت. ومن هذه الملاحظات بنى الإنسان أسطوره، التى ربما تمثل أول تصور عقلى للبشرية عن الروح.

وحدث الموت يحتاج جميع الكائنات الحية، من إنسان وحيوان ونبات، فهو وجه العملة المقابل للحياة. وفى نفس الوقت فإنه يصادف هذه الكائنات فى أى مرحلة من مراحل حياتها. فقد يصادفها فى لحظة ميلادها، وقد يعترىها فى مرحلة شبابها، وقد يأتى عليها فى مرحلة الشيخوخة. وإذا كان الموت يرجع فى معظم الأحيان لمرض أصاب الجسم أو حادث ألم به، فقد يكون تلقائياً دون مقدمات، وهو فى النهاية حدث واقع لا محالة، ولا مجال لتجنبه وتحاشيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء].

والموت يمثل على المستوى النفسى، حدثاً مخيفاً مرعباً.. ومؤلماً.. وبغيضاً..

فلا جدال أن الموت مخيف ومرعب. فبعد أن كنا بين الأهل والرفاق نتنفس معهم نسيم الحياة ونستمتع معهم بلذاتها، نتصور أنفسنا ونحن نُوارى فى باطن الأرض، حيث يهيل علينا الأحبابُ التراب، ليودّعونا إلى الأبد، فنبقى فى فزع وحدة القبر ورعب السكون القاتل بين الأجداد فى حُلْكة الليل.. نعم إنها لحظة تقشعر من هول تخيلها الأبدان.

ولا شك أن الموت حدث مؤلم. وإذا كانت بعض هذه الآلام ترجع إلى طبيعة المرض المميت

الذى يصيب الإنسان، فإن علماء الدين والأطباء يخبروننا أن للموت سكرات مختلفة عن آلام المرض، مصداقاً للآية الكريمة ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩) [ق]، بل إن هذه السَكَرَات كان يعانيتها أقرب الخلق إلى الله ﷻ، فقد كان المصطفى ﷺ في لحظات احتضاره يمسح وجهه بالماء ويدعو: «اللهم أعِنِّي على سكرات الموت» (١).

وأخيراً.. لماذا الموت حدثٌ بغِض؟... لا شك أن الموت بما يحمله من معاني الفناء والعدم، يُعتبر أكثر الأمور كراهية للنفس البشرية، حتى وإن آمن الكثير منهم أنهم منتقلون إلى عالم أفضل. كذلك فإن الاستمتاع بالدنيا والتعلق بها كَبَّرَ عند النفس بغض مفارقتها. وقد أدرك اللعين إبليس بُغْضَ النفس البشرية للفناء والعدم، فدخل إلى آدم من هذا الباب ليغريه بمعصية ربه والأكل من الشجرة المحرمة ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَدُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (٢٠) [طه].

وإذا كان الفناء والعدم أبغض الأمور للإنسان، فلا شك أن نعمة الإيجاد أعظم نعم الله ﷻ علينا. والمدحش أن بعض الملاحدة يُمارى ويدَّعى أنه غير راض على وجوده في الدنيا، ويضيف ساخراً: إن خالقكم لم يأخذ رأياً قبل أن يخرجني إلى الوجود. وقد أفحمت أحد هؤلاء المُدعين وقلت له إن لم تكن راضياً عن وجودك في الدنيا فلم لا تخرج منها؟ فسألني كيف؟ أجبتُه: بالانتحار! فتركني ومضى.

وبالرغم من أن الموت - عند معظمنا - حدث مخيف مرعب .. ومؤلم .. وبغِض، فإن هذه المشاعر تقل، وربما تتبدل إلى عكسها، عند نفر أربعة: شخص اشتاق للقاء ربه واعتبر الدنيا هي الحجاب الأوحَد عن هذا اللقاء، وشخص آمن بصدق أن وراء الموت حياة أخرى أفضل وأنه أول منازل هذه الحياة الرغدة الأبدية المُرتَقبة، وشخص يرى في الموت سبيلاً للقاء من ودعه من أَجبة تعلق بهم كثيراً، وأخيراً شخص يرى في الموت راحة من مرض عضوى ألم به أو عذابات نفسية صار احتمالها فوق طاقته.

### حقيقة الموت...

إذا كنا (على المستوى النفسى) نرفض اعتبار أن الموت مرادف للفناء والعدم، وفي نفس الوقت لا يستطيع العلم المادى أن يقدم لنا رؤية أخرى للموت، فإن خير من يُعَرِّفنا حقيقة الموت هو خالق الموت والحياة، فأيات القرآن الكريم تخبرنا أن:

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

١ - الموت خلق شأن الحياة تمامًا: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الملك]، ومعنى أن الموت «خلق» يتعارض مع النظر إليه باعتباره عدمًا وفناءً.. فالخلق عكس العدم.

٢ - الموت مرحلة من مراحل الأبدية: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم]، فالموت سبقه الخلق والرزق، ثم يتبعه بعث ونشور.

٣ - الموت ينقلنا إلى عالم حقيقي، بل قل إلى عالم الحقيقة... فالموت يكشف عنا حُجُبًا تُغشى عنا الملكوت العلوى ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق]، عندها يرى الإنسان أن الوعد والوعيد حق، وربما يرى نفسه خلال مسيرته في الأزل والأبد: أين كان وإلى أين المصير؛ فيرى أن الحياة الدنيا كانت كطرف عينة، ويصير مكانه في الحياة الآخرة الأبدية ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [٨٨] ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ [٨٩] ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [٩٠] ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [٩١] ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ [٩٢] ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [٩٣] وَنَصِيلَةٌ حَمِيمٍ﴾ [٩٤] إِنْ هَذَا هُوَ حَقُّ الْقَيِّينِ﴾ [٩٥] ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [٩٦] [الواقعة].

٤ - الموت معبر له قوانينه وعواقبه: ويمكن التكهن ببعض هذه القوانين من خلال مخالفتها للقوانين التي تحكم الحياة، ويمكن التكهن ببعض الآخر من خلال استمرارية بعض قوانين الحياة التي لا تتأثر بالموت. فالمجموعة الأولى المخالفة لقوانين الحياة، أهمها انعدام الإحساس المادى وانقطاع عمل الإنسان، وذلك لتحلل الجسد، ويترتب على ذلك السكون عن الحركة والفعل، والصمت نتيجة لتوقف أدوات الحس والتعبير. أما المجموعة الثانية التي هي امتداد لقوانين الحياة، فأهمها استمرارية الذات الإنسانية والحس المعنوى المرتبط بالروح والنفس، ولعل هذا الحس يزداد بعد فناء الجسم المادى، وهذا الحس المعنوى يتوجه تجاه النعيم أو العذاب.

وفي ختام تأملاتي عن الموت، ربما كان أكثر ما يثير دهشتي هو موقفنا العملي تجاه الموت! فبالرغم من أن الموت هو الحقيقة الأكبر - التي ليست بحاجة إلى استدلال واستشهاد - في حياتنا، فإننا نسلك في الدنيا كأننا مخلصون، غير مباليين به! أو كأن الفرار منه محتمل وربما هو الأرجح.

وفي هذا المعنى يقول المولى عليه السلام: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ②﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ [التكاثر] صدق الله العظيم.

## أنا... بعد الموت

### الحياة فى البرزخ

بعد المرور عبر بوابة الموت، ينتقل الإنسان إلى «البرزخ». والبرزخ بمفهوم اللغة والعلم، هو وجود يفصل بين تكوينات وحيوات، لكل منها مقوماتها الخاصة، بحيث لا تبغى إحداها على الأخرى ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ⑩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ⑪﴾ [الرحمن].

ويعنى البرزخ فى المفهوم الدينى وجوداً للنفس بين حياتين: الدنيا والآخرة، كمرحلة انتقالية تُصَفَّى فيها النفس أعمالها الدنيوية وتتهيأ لملاقاة حياتها الأخرى، التى تبدأ بيوم القيامة أو البعث العظيم.

ويكاد الوجود فى البرزخ يشبه الوجود فى الأرحام، الذى يفصل بين حياتنا الدنيا وبين حياة غيبية للإنسان تسبق هذه الحياة. ويمكن تشبيه البرزخ بما نلاحظه فى الكائنات التى تمر بأكثر من حياة فى الوجود الذى نعيشه، فوجود الحشرة فى الشرنقة يفصل بين حياتها السابقة كدودة وحياتها التالية كفراشة، وفى تلك الشرنقة تتغير الحشرة وتتبدل لاستقبال حياتها الجديدة.

وإن كان الوجود البرزخى مرحلة انتقالية تسبق البعث يوم القيامة، فالنفس فيها تنعم أو تتألم بعواقب أفعالها فى الحياة الدنيا. والدليل على ما يمكن أن يلقاه المرء من نعيم قبل يوم الحساب قول الحق ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ⑫﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ⑬ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ⑭﴾ [آل عمران]. أما الدليل على العذاب الذى يمكن أن يلقاه المعاندون والعصاة قبل يوم القيامة، قول الحق ﷻ: ﴿أَلَتُنَارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ⑮﴾ [غافر]. وتستمر حياة الإنسان فى البرزخ حتى يوم

البعث ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ ﴾ ١١ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿ ١٠٠ ﴾ [المؤمنون].

## أنا ... فى الحياة الأخرى

تبدأ الحياة الأخرى بالبعث؛ والبعث فى المفهوم الضيق هو عودة الروح والحياة إلى الجسد، أى عودة الإنسان إلى الحياة. ولكن البعث فى مقام الحديث عن يوم القيامة يحمل معنى يتجاوز ذلك بكثير، إنه بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة.

ومن أهم التغيرات التى تحدث مع فناء الحياة الدنيا، انعدام عنصرى الزمان والمكان وتوقف قانون السبب والنتيجة. وينعكس ذلك فى الحياة الأبدية على هيئة قوانين جديدة، ربما يعجز فكرنا عن إدراكها، ومن هذه القوانين:

### ١ - الديمومة والخلود، حيث انعدام قيد الزمان:

يحيا الإنسان فى حياته الدنيا فى ظل بديهية أن ما كان له بداية فإن له نهاية، وينبنى على ذلك أن الابتلاء فى الحياة الدنيا - كأى امتحان - له وقت محدد. أما فى الحياة الأخرى فهناك ديمومة مطلقة ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ ١١٦ خَلْدَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿ ١١٧ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِى الْجَنَّةِ خَلْدَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿ ١١٨ ﴾ [هود]. ويفسر هذا المنظور بعض ما سيحدث لذواتنا الإنسانية فى تلك الحياة، فالعمر يثبت عند مرحلة الشباب، والجو يشبه وقت العصر دون تناوب ليل ونهار.

### ٢ - لا نهائية المكان، حيث انعدام قيد المكان:

إذا كانت الأرض - فى الوجود الذى نعيشه - تكاد تضيق بمن عليها، فما أدراك بالبعث الذى يشمل الخلق جميعاً على اختلاف العصور، وما أدراك بالجنان التى تُخصَّص لكل طائع منيب، لا شك أن ذلك يحتاج أرضاً غير محدودة المدى. ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ٤٨ [إبراهيم<sup>(١)</sup>].

(١) يمكننا علمياً تقبل مفهوم لا نهائية المكان؛ فإذا كانت المسافة بين أى نقطتين تساوى حاصل ضرب السرعة فى الزمن، فإن مقدار المسافات فى حالة لا نهائية الزمن لا بد أن تكون لا نهائية.

وإذا كانت ديمومة الزمان ولا نهائية المكان أمور يصعب تصورهما، فيمكننا تيسير ذلك بتأمل ما نراه في الأحلام، فلأحلام قوانينها التي لا تراعى الزمان ولا المكان، ففي دقائق معدودة يمكن أن تحيا حياة طويلة تتزوج فيها وتنجب وربما تُزوّج أبناءك. كذلك في دماغنا المحدود يمكن أن نحيا أثناء الأحلام في مروج شاسعة ونشاهد محيطات لا نهاية لها.

٣ - أما انعدام قانون السبب والنتيجة، فيمكن أن يُفسّر العديد من العطاءات التي يعدها بها الله ﷻ في الجنة، حيث يجد الإنسان كل ما يخطر في باله حاضرًا أمامه دون أن يسعى إليه.

ولا شك أن الناس سيتفاوتون فيما يمر بهم من أحداث في يوم القيامة، ما بين أنبياء وصديقين وأولياء يكون عليهم هذا اليوم بمثابة المتعة في الحضرة الإلهية، وبين كفار وعصاة وفجرة ومنافقين يرون أهوالًا لا تخطر على قلب بشر. وفي النهاية، إما إلى جنان أو إلى نيران. وتفاصيل هذه المراحل كلها خارج نطاق هذا الكتاب، الذي يتحدث عن الذات الإنسانية، لذلك اخترت أن أنهي هذا الفصل - والباب - بالحديث عما يجري على الذات الإنسانية المُنعمّة في الجنان من تغيرات.

## طبيعتي ... في الجنة

إذا كان الإنسان يتركب من خماسية تمثل الذات الإنسانية، ولكل عنصر من عناصرها دوره في الحياة الدنيا؛ جسم يخوض به مسيرة الحياة، وعقل يدبر به أموره، ونفس وقلب تُعرض عليهما البدائل، وروح هي نفخة من روح الله. فهل ستظل هذه العناصر تؤدي نفس أدوارها في الحياة الأخرى، أم أن طبيعة ذواتنا الإنسانية ستختلف لاختلاف طبيعة الحياة الأبدية في الجنة؟

في الحياة الأخرى، نسأل الله الكريم أن نكون من أهل الجنة، حيث النعيم.. حيث الأبدية.. حيث الانتصار على الشيطان.. حيث النفس المطمئنة.. حيث النشوة في الحضرة الإلهية.. حيث العطاء الإلهي بكل سعته.. حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، في هذه الحياة لا بد أن يعترى التغير عناصر ذواتنا البشرية.

فالجسم، قد تحلل من دورته في الحياة الدنيا - وهي دورة الطفولة والشباب والشيخوخة - ليصير في شباب دائم ومتصل إلى أبد الأبد، شباب من طبيعته أن يتضاعف فيه الإحساس بالنعيم. جسم برّء من أمراضه ليصير في نضرة وحيوية كاملة، فينهل من النعيم، وهو موفور

الصحة والعافية. جسم تنصل من شيطانه الذى كان يقهره على الفسق والفجور، ليستمتع برغباته فى حب ونقاء، شكرًا وثناء. جسم تسامت ذاته، فلا يجد ما يرضيه من فكر وإجهاد ولا ما يشقيه من قهر واستعباد، وإنما هى دائماً حلاوة القرب والاستغراق فى النعيم. جسم تحرر فى النهاية من الطاعة المفروضة عليه فى جبر وعناء، ليحل محلها المفاضلة بين المتع الحسية والنفسية فى حرية واسترخاء. ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وهكذا يمكن القول إن جسم الإنسان يعاود سيرته الأولى يوم كان الإنسان فى الجنة ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة]، بل يمكن القول أنه سيكون أكثر سعادة عند عودته إلى الجنة؛ فلن تكون هناك شجرة محرمة عليه! إن ما طرأ على الجسد الإنسانى من تغير فى الحياة الدنيا كان نتيجة هبوطه الأرض، حتى يلائم ظروفه وطبيعة الدور المعقود عليه القيام به، فى الصراع الدائر بينه وبين الشيطان.

والعقل أيضًا، تبدل وظيفته من الوظيفة المعروفة فى الحياة الدنيا، فيتغير من عقل كادح .. يعمل ليل نهار وفى كل الظروف والملابسات - حتى ولو استقر حاضره - لِيُؤْمَنَ مستقبله الذى يجهله، إلى عقل هادئ مستقر تَخَفَّفَ من كل أحماله، حتى صار يرفرف فوق واقعه، ويهتز فرحة ولذة لنعيمه. ليس عنده ما يشغله من هم وغم وكرب وموت، وإنما فقط ينتقل من نعيم لنعيم ومن حس لآخر أحسن منه.. بعد أن كُتِبَ له الخلود، وصار من المقربين.

إنه يرتفع هناك إلى حيث مصادره الأولى... إلى حيث العقل الأعظم ... إلى حيث الطمأنينة.. إلى حيث النقاء.... إلى حيث مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

فهل ما زال الإنسان فى الحياة الآخرة يشعر بالرتابة والملل كما يدعى الماديون ساخرين؟ كلا، ألف كلا.

أما النفس والقلب، الأنا المختارة، عندما تنتقل إلى الحياة الآخرة - حيث الوفرة، كل الوفرة - فإنها بالطبيعة تتغير من «الأنا المريدة» التى تميز النفس الأمارة إلى «الأنا المحبة» التى تميز النفس الآمنة المطمئنة. وفارق كبير بين الأنا المريدة والأنا المحبة، ذلك أن الأولى طبيعتها الصراع للاستئثار بكل ما هو متاح وغير متاح، ومن ثم ففيها الطمع والجشع وحب الذات... إلخ.

أما «الأنا المحبة» فطبيعتها الإيثار والعطاء، ذلك أن الحب يسمو بالنفس ويتعالى بها عن الجشع والطمع. وما منا من عايش حالة حب إلا ووجد نفسه وقد ضحى بالكثير وأعطى المزيد، برضا وسماحة وإنكار كامل للذات.. فما بالك وقد سَمَت النفس إلى درجات الحب الإلهي، بالقطع ستسمو فوق الماديات، وتزداد تفران في العطاء، ولن يغرقها في النعيم هناك إلا إحساسها بأن ذلك عطاء الله، إذ ستنهل منه بعشق الحبيب... فيتضاعف الإحساس بالنعيم مرات ومرات. وقد بيّن لنا الله ﷻ آلية التحول من «الأنا المريدة» إلى «الأنا المحبة» في قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْنَصِينَ﴾ (١٧) [الحجر].

أما الروح، فشأنها شأن آخر، فرحتها تفوق فرحة عناصر الذات الإنسانية الأخرى، لقد قُطع الطريق، وانقضى السفر، وعادت إلى حيث مصدرها، عادت إلى الحبيب المحبوب، كل ما مضى من عناء كان لأجل هذا اللقاء.

وهكذا:

فإن عالم السلام، عالم السكينة، عالم الوفرة، يعكس بالضرورة سلامًا مع النفس، يجعلها راضية مطمئنة، في سلام مع الآخرين، حيث تكون تحيتهم فيها سلام.. تصعد «الأنا» إلى عليين، وتتفاعل مع عالمها.. فتكون اختياراتها دائماً تسيباً وشكراً، وتكون متعتها الحسية دوماً قرباً وحباً، وتكون دعوتها: أن الحمد لله الذي صدّقنا وعده، تنبوء من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين.

### كيف السبيل

إن الطريق لتحقيق هذا النعيم يبدأ بمجاهدات للنفس، يقوم بها الإنسان في الحياة الدنيا، حتى يتسنى تكبيل الذات الإنسانية المريدة بالعقل.

ومن ثم، على الإنسان أن يجاهد نفسه المريدة بكل عواقبها من طمع وجشع وحسد، لترقى إلى نفس محبة تسمو فوق الماديات في إيثار وعطاء.

وعليه أيضاً أن يجاهد نفسه القلقة المتوترة التي تجزع وتحزن وتفرع لكل ما يصيبها من قضاء، لتصبح نفساً مطمئنة راضية بما قُدِّر لها ﴿يَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (٢٨) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (٢٩) ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣٠) [الفجر].

فكأن طمأنينة النفس في الحياة الدنيا، وصقلها بالحب الإلهي، وقهرها لشهواتها، والتحكم

فى غرائزها، والسيطرة على دوافعها من استئثار وجشع، والرضا الكامل بقضاء الله باعتبار أنه صادر عن خالق حكيم دونه إدراكاتنا.. كل هذه هى مؤهلات الإنسان التى ينبغى أن يتحصل عليها من دنياه.. للرجوع إلى الخالق ودخول الجنة.

والمحصلة النهائية، أن الذات الإنسانية بمكوناتها؛ الجسم والملكات العقلية والنفخة الغيبية تتغير لتتلاءم مع حياة النعيم فى الجنة، شريطة أن يكون الإنسان قد أَهَّلَ نفسه فى حياته الدنيا لتقبل هذا التغير والتبديل.

### القارئ الكريم

ذكرنا فى بداية الفصل أن الحضارات الإنسانية والديانات المختلفة تكاد تُجمع على الربط بين الموت ومغادرة الروح للجسد، أما الطب، فيعتبر أن موت الأجهزة الحيوية الثلاثة، القلب والجهاز التنفسى والمخ يُعتبر موتاً للجسد. ثم ربطنا بين هذين المفهومين (الدينى والطبى) للموت.

ومن أجل المزيد من الفهم لطبيعة الموت، أوضحنا أن خلق الإنسان يمر بمرحلتين:

مرحلة خلق جسد الجنين وتسويته وبث آليات الحياة فى خلاياه، تلك الآليات التى تشارك الإنسان فيها سائر الكائنات الحية. ثم تأتى مرحلة نفخ الروح فى الجنين بعد تسويته، وهذه المرحلة خاصة بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات. معنى ذلك أن آليات حياة الخلية والروح أمران ضروريان لحياة الكائن الإنسانى، وكل منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به، فاكتمال تسوية جسد الجنين شرط لازم لنفخ الروح فيه، كما أن حياة الإنسان ترتبط بوجود الروح فيه.

وبين القرآن الكريم أن الموت هو مقابل أو نقيض الحياة. ومن ثم فإن الموت يتكون أيضاً من مرحلتين، هما مغادرة الروح للجسد بالإضافة إلى توقف آليات الحياة فى الجسد. وقد أثبتنا أن الروح تغادر الجسد قبل توقف سر الحياة فى الجسد عند الموت.

لذلك إذا جَزَمَ الطب بموت المخ موتاً نهائياً لا رجعياً، فقد غادر مكونا الحياة جسد الإنسان، أى «غادره الروح وغادرته آليات حياة الجسد». وبالتالي فإن الإنسان الميت مخياً هو إنسان «مُتوفى» بالمفهوم الدينى كما أنه «ميت جسدياً» بتعريف الطب. وفى هذه الحالة، قد تبقى - لفترة - حياة خلوية لأنسجة تعمل منفردة معتمدة على أجهزة صناعية، وهى أقل درجة من

حياة النبات ومن حياة الجنين داخل الرحم قبل نفخ الروح فيه، وهى شبيهة بعمل أجزاء الأجهزة الصناعية المفككة التى لا تستطيع أن تعمل بشكل تكاملى.

وتبين آيات القرآن الكريم أن الموت خُلِقَ شأن الحياة تمامًا، وأنه مُعَبَّر بين مسيرتين، ينقلنا إلى عالم الحقيقة. وللموت قوانينه التى تحكمه، وأهمها انعدام الإحساس المادى وانقطاع عمل الإنسان، فهى النشاطات المرتبطة بالجسد الذى يبلى، وفى الوقت نفسه يستمر الحس المعنوى، والشعور بالذات الإنسانية لارتباطها بالروح والنفس.

ولا تُعتبر الحياة الآخرة مجرد عودة الروح والحياة إلى الجسد، بل إن البعث يمثل بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة. وأهم تلك القوانين الجديدة الديمومية والخلود ولا نهائية المكان، حيث انعدام قيد الزمان وقيد المكان، والحياة فى معزل عن قانون السبب والنتيجة.

كذلك فإن تلاشى قوانين الطبيعة وبزوغ قوانين الحياة الجديدة، يتطلب حدوث تغيرات فى الذات الإنسانية، تشمل عناصرها جميعًا، لتتلاءم مع حياتها فى الجنان، شريطة أن يكون الإنسان قد أهَّل نفسه فى حياته الدنيا لتقبل هذا التغير والتبديل.

\*\*\*

## حصاد الرحلة

واكتملت الرحلة...

والاكتمال غير الكمال، فالكمال لله ﷻ وحده، أما الاكتمال فهو أن تُتم ما سبق أن خططت له ووضعت حدوده وأبعاده، بقدر مقبول من التوفيق. وقد كان المقصود من هذه الرحلة أن نُعرّف الإنسان بذاته الإنسانية، كما تنظر إليها العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والعلوم الدينية، خاصة بعد أن جارت على الرؤية الصافية مفاهيم زائفة صارت تتردد كأنها حقائق علمية، كالحتمية البيولوجية والحتمية التربوية، والمادية الجذرية والنسبية المطلقة، وما بعد الحداثة... أما جناية الداروينية على الذات الإنسانية فلم تقف عند المفاهيم التي تطرحها كنظرية علمية، بل سادت كل مجالات الحياة وحولتها إلى حلبة صراع وميدان معركة، فصرنا نسمع عن الداروينية السياسية، والداروينية الاجتماعية، والداروينية الاقتصادية، والداروينية في الأدب، و...

إن هدفنا هو أن ننقى نظرتنا لأنفسنا من سموم شهوت الإنسان وجعلته مسخًا. حتى إذا ما صفت الرؤية، تمكن الإنسان - بشكل أيسر - من أن يسلك نهجًا حيائيًا أكثر انسجامًا مع طبيعته وفطرته وأكثر تحقيقًا لرسالته.

ولا شك أننا في حديثنا عن الذات الإنسانية كنا بعيدين عن الإحاطة الكاملة، فهذا في حكم المستحيل، لذلك اقتطعنا من العلوم المختلفة نماذج تعبر عن نظرة كل علم، وتحقق الهدف الذي قصدنا إليه، وجمعنا هذه النماذج بشكل متناسق في الباقية التي بين يديك. والآن إلى حصاد

الرحلة:

## أنا... فى العلوم الطبيعية

### أولاً: أنا ذات عاقلة

١ - يتميز الإنسان على غيره من الكائنات بالملكات العقلية، التى جعلته يسود كوكب الأرض، ويتطلع إلى الكواكب الأخرى؛ فى الوقت الذى أوشك أقرب الكائنات إليه جينياً وجسدياً - وهو الشمبانزى - على الانقراض. ولشدة تعقيد آليات العمليات العقلية الإنسانية فإن اضطرابها يؤدى إلى العديد من المشكلات التى تفوق خيال أشد المؤلفين القصصيين جموحاً !

٢ - عند الحديث عن الملكات العقلية، ينبغى أن يكون «الوعى» أولها، فالإنسان غير الواعى لا يمكنه أن يمارس باقى النشاطات. وأول ما يتمخض عنه الوعى الإنسانى هو «الإدراك»؛ إدراك الإنسان لذاته وللمحيط. ويتلو الإدراك عملية «الفهم»، التى لولاها لارتد طفلاً لا يفهم معنى ما يعى ويدرك ولا يتفاعل معه.

٣ - ومن بديهيات الذات الإنسانية العاقلة استشعارها أن جميع سماتها ونشاطاتها تخص «جسدها المادى المتوحد»، وأنها بالأمس هى هى اليوم، وأنها يمكن أن تنتقل بخيالها إلى المستقبل، أى أنها «ذات ممتدة عبر الزمن، وقادرة على الانتقال فيه».

٤ - وربما كانت «حرية الإرادة» من أهم سمات ذاتنا العاقلة التى أثبتها العلم، وحررنا بذلك من مفهومى الحتمية البيولوجية والحتمية التربوية اللذين يتخيلهما بعض البيولوجيين والتربويين، وأيضاً مفهومى الجبر والتفسير اللذين أوقعنا فيهما بعض الفلاسفة ورجال الدين.

٥ - ولا شك أن الإنسان هو الكائن الأوحى الذى يتمتع بـ «حياة عقلية داخلية خيالية» تمكنه من تصور البدائل، وتوقع الأفضل والأسوأ، وتقدير النتائج مسبقاً والتخطيط لتحقيق أفضلها، ولا شك أن هذا الخيال يقف وراء العلم والفن والفلسفة والدين.

٦ - ولا يكون الخيال مثمرًا ومبدعًا ما لم يتمتع الإنسان بـ «الذكاء». وقد ثبت - حتى الآن - أن الذكاء الإنسانى عشرة أنواع، تمارس نشاطاتها فى مختلف مجالات الحياة الإنسانية، ولكل منها مركزه المعى المتخصص.

٧ - والإيمان بأن «وراء كل حدث سبب» ملكة فطرية غريزية في عقولنا، تقف وراء سعى الإنسان الحثيث من أجل تفسير الأحداث. ولولاها لتخبط العقل البشرى في جميع الاتجاهات على غير هدى. ولدفع الإنسان للبحث عن هذه الأسباب، زوّد العقل البشرى بملكة «حب الاستطلاع والبحث»، التى أعانته على تحمل مخاطر جمة من أجل اكتشاف أسباب وآليات ما يمر به من أحداث، وأيضاً من أجل اكتشاف المجهول.

٨ - والإنسان «كائن اجتماعى تعافى»، أشتق اسمه من الائتناس بغيره. ولولا ذلك لما أنشأ مؤسسة الأسرة التى هى لبنة بناء المجتمعات، ولعاش وحيداً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه. وقد زوّد السلوك الاجتماعى الإنسان بالقدرة على الصمود ضد أعدائه ونجّاه من الانقراض كغيره من الكائنات.

٩ - لقد كان ظهور «اللغة الإنسانية» انبثاقاً مفاجئاً، وليس نتاج تطورى لوسائل تواصل أسلاف الإنسان، لذلك أطلق ناعوم تشومسكى على نشأة اللغة اصطلاح «الانفجار اللغوى الأعظم». وقد مكنت اللغة الإنسان من الترميز لكل شىء باسم، مما أعانته فى عملية التفكير، كما مكنته من التواصل الاجتماعى ونقل المعلومات للآخرين وتوارثها عبر الأجيال، وبذلك صار الإنسان إنساناً، وتمكن من بناء حضارته.

١٠ - كما وُهبَ الإنسان بالفطرة «ذاتاً فنانة متذوقة للجمال». وقد أثبت العلم أن تذوق الجمال عملية بيولوجية موضوعية وليست أمراً ذاتياً ليس له مقاييس. وقد توصل العلماء إلى المراكز المخية التى تتذوق الجمال، وهى نفس المراكز التى تُبدع الفن. كما توصلوا - حتى الآن - إلى عشرة قوانين لها آلياتها المخية، تحكم الحس الجمالى والتذوق الفنى، وبذلك صار الجمال والفن علماً تطبيقياً بعد أن كانا محصورين فى نطاق العلوم الإنسانية.

١١ - وربما كان أعظم الإنجازات فى مجال المخ والأعصاب خلال العشرين عاماً الماضية هو اكتشاف ما يُعرف بـ «عصبونات المحاكاة»، وهى الخلايا العصبية التى تنشط عندما يمارس الكائن عملاً ما، وأيضاً عندما يرى هذا العمل يُمارس أمامه. وقد فسر وجود هذه العصبونات الكثير من نشاطات الإنسان الحركية والحسية والشعورية والتعليمية، كما كان لها دور رائد فى نشأة اللغة وبناء الحضارات. كما يمكن القول إن هذه العصبونات ربطت بين الناس حتى صاروا جميعاً كأنهم فرد واحد.

١٢ - وقد أثبت العلم أن الرجال والنساء ليسوا متماثلين في النشاطات العقلية، وأصبح يتحدث عن «المخ/ العقل التنظيمي الذكوري» و«المخ/ العقل التعاطفي الأنثوي»، بعد أن ثبت أن هناك فوارق بيولوجية في بنية وطريقة أداء أمخاخ كل من الجنسين لوظائفها، فوارق تقف وراءها عوامل جينية وهورمونية ثم تربوية. وقد فسرت تلك الفوارق الاختلافات السلوكية والعقلية والشعورية بين كل من الرجال والنساء.

١٣ - وفي مجال «نشاطات الإنسان الروحية»، أثبت العلم أن المخ البشري مزود بآليات للتعامل مع بنية الدين، تبدأ بالقدرة على الفهم العقل للوحي السماوي، ثم وجود الشوق الفطري تجاه مفاهيم الإلهية والدين، ثم الرغبة الفطرية في تجسيد المفاهيم العقلية، ثم القدرة على تحويل المعتقدات العقلية إلى تجارب حسية ذاتية، وأخيراً القدرة على إغلاق الدوائر المخية للشعور بالذات وبالوسط المادى المحيط، مع استحضار مشاعر التسامى، ثم التواصل مع عوالم الغيب الحقيقية.

وكما يمكن تدريب الجسم لتحسين مهامه الجسدية، فيمكن تحسين آدائنا العقل والروحي من خلال مجاهدة النفس والتأمل وممارسة العبادات والتدريبات العقلية والروحية. ألم يكن سير ألفريد والاس محققاً - خلافاً لدارون - حين أعلن أن ملكة العقل نفخة إلهية.

## ثانياً: الوعى يقهر اللاوعى

١ - تقوم تنشئة الوالدين لأطفالهما بدور كبير في برمجة عقولهم ابتداء من المرحلة الجنينية، ولا تقل أهمية هذا الدور - بل تزيد - عن البرمجة الجينية الوراثية، ويقوم بدراسة هذا الدور علم جديد يُعرف بـ «علم التحكم في الجينات». لذلك أصبحت تنشئة الوالدين لأطفالهما نوعاً من «الهندسة الوراثية» إذ تقوم بتنشيط أو تثبيط بعض الجينات التي لها دور في توجيه سلوك الأطفال وحالتهم النفسية والعقلية.

٢ - وإذا كانت التنشئة السوية لأطفالنا في جو من الحب والتوافق تُنتج أطفالاً أسوياء، فإن افتقاد هذا الجو يُطغى جذوة التعاطف في نفوسهم، ويفرز أنماطاً متعددة من الانحراف النفسى والسلوكى.

٣ - وإذا كانت الجينات تحدد الاستعداد الوراثي للطفل، فإن التنشئة تحدد نوع السلوك الذى يتبناه الشخص فى إطار هذا الاستعداد. كذلك لا يفيد كثيراً أن يمتلك الجين جينات إيجابية إذا كان سيواجه من الإهمال وسوء التربية ما يشبط تلك الجينات.

٤ - وتقوم التنشئة بدور كبير فى برمجة عقلنا اللاواعى على العديد من المفاهيم التى ستعتبر بديهيات عقلية وتوجه مشاعر وسلوك الإنسان فيما بعد، تماماً كما يقوم الطيار الآلى بتوجيه الطائرة. لذلك فإن من أهم أسباب ما يعانى به البشر من صراعات نفسية هو التعارض بين طموحاتنا الواعية وبين ما تم برمجته فى عقلنا اللاواعية.

٥ - وقد أثبت العلم، أن الإنسان قادر بوعيه (بعد تدريبات شاقة) على تغيير ما تم برمجته فى اللاوعى، بل وقادر أيضاً على التحكم فى وظائف جسمه اللاإرادية مثل نبضات القلب ومعدل التمثيل الغذائى. لذلك يهتم الطب النفسى من خلال «العلاج المعرفى» بتعديل الخريطة المعرفية للإنسان، والتى تحدد أولوياته الواعية واللاواعية، من أجل علاج المريض من العديد من مشكلاته وأمراضه النفسية.

### ثالثاً: لسنا روبوتات

١ - أثبت العلم خطأ النظرة التى سادت علم البيولوجيا لعقود، باعتبار أن الشفرة الوراثية (الجينات = الدنا DNA) هى سر حياة الخلية، وأن النواة التى تحمل الجينات هى بمثابة مخ الخلية. والدليل على خطأ ذلك أن الخلية إذا نُزِعَت نواتها تستمر فى الحياة لفترة تصل إلى شهرين، وإن كانت تفقد القدرة على التكاثر وعلى إنتاج بروتينات جديدة.

٢ - فى المقابل، يمكن اعتبار غشاء الخلية هو سر حياتها والقائم بمهام المخ فيها! فهذا الغشاء هو المسئول عن استشعار ما يدور خارج وداخل الخلية، ثم توجيه أنشطة الخلية تبعاً لما يستقبله من معلومات، كما أنه المسئول عن التحكم فى نشاط الجينات، كذلك يقوم هذا الغشاء بتوجيه تفاعل الخلية مع العوامل التربوية والحالة النفسية للإنسان. إن كل ذلك يعنى كذب مفهوم «الحتمية البيولوجية» الذى يرى أننا أسرى للشفرة الوراثية المُبرمجة سلفاً فى جيناتنا.

٣ - وبذلك أسدت «البيولوجيا الجديدة» الستار على عالم الداروينية، الذى يصور الدنيا كحلبة للصراع بين روبوتات ينتصر فيها الأقوى، وفى نفس الوقت فَتَحَتْ آفاقنا على

حياة جديدة يتعاون فيها البشر من أجل الحياة في سعادة وحب، تلك الحياة التى يتفاعل ويتناغم فيها الإنسان مع الوجود من حوله.

## رابعاً: قوى الخفية أشبه بالخيال

١ - أظهرت الأدلة العلمية الجديدة أهمية دور الطاقات الحيوية والكونية فى النشاطات البيولوجية والعقلية والنفسية للإنسان. فقد ثبت أن للمجالات المغناطيسية الكونية وكذلك للحقول المغناطيسية الأرضية تأثير على العديد من نشاطات الإنسان الفسيولوجية وعلى النشاط الكهربائى للدماغ، مما يؤثر على قدراتنا وصحتنا ووعينا ومزاجنا ومشاعرنا الروحية، مما يجعلنا جزءاً من منظومة الوجود تتأثر بها إلى حد يفوق توقعاتنا.

و تُعتبر «ظاهرة الإفضاء» من أكثر الظواهر الفيزيائية غموضاً، وفيها يتم تبادل الطاقة والتجاوب بين منظومات فيزيائية (كحركة بندولين) وبيولوجية (كدقات قلبين) وكذلك بين كل موجودات الكون، مما يؤدي إلى قدر من التوحد الحركى والانفعالى!

كذلك ثبت أن أشكال الحياة المختلفة متوالفة بدقة مع بعضها البعض (الإنسان - النبات - الحيوانات - الكائنات البدائية) وأن الكائنات الحية ترسل معلومات تخاطرية فيما بينها فى كل لحظة، وهو ما صار يُعرف «بتأثير باكستر».

وبمارس بعض الخبراء «علاج المرضى عن بعد»، عن طريق التركيز العقلى. كما تمارس حضارات الشرق الأقصى أنواعاً من العلاجات للأمراض المختلفة، مستغلة مجالات الطاقة، «كالعلاج بالإبر الصينية». ويعجز العلم التقليدى عن تفسير العديد من الظواهر، كالقدرة على تحريك الأجسام عن بُعد، وتوارد الخواطر، والرؤى الصادقة. وكذلك ما يُعرف بـ«تأثير الجريمليين»، والذى يعنى قدرة أفكارنا بل وحالتنا النفسية على التأثير عن بعد على الأجهزة الإلكترونية.

٢ - من أهم القضايا التى تشغل الفيزياء الحديثة اليوم، أن المكونات تحت الذرية يتأثر بعضها ببعض مهما كانت المسافة بينها، ويُعرف ذلك بـ«مفهوم التشابك». وحديثاً ثبت أن التشابك يحدث على مستوى الذرات والجزيئات والبللورات الكبيرة. كما ثبت أن جزيئات المادة كبيرة الحجم قادرة على التواجد فى مكانين فى آن واحد، أى أنها ليست

مستقرة، وأنها تحت ظروف معينة تتجاهل قوانين نيوتن وتخضع لقوانين الكوانتم! إن هذه الاكتشافات تثبت أن هناك قانوناً واحداً للفيزياء، ومن ثم إذا كان للراصد دور في فيزياء الكم، فهل يمتد هذا الدور إلى عالم الأجسام الكبيرة؟

٣ - وقد ثبت أن الكثير من التأثيرات السابقة تتم عن طريق المجالات الكهربائية والمغناطيسية، بل لقد أمكن تصميم أجهزة قادرة على تسجيل وقياس مجالات الطاقة التي تنتجها نشاطاتنا العقلية التي تمارس من خلالها بعض التأثيرات السابقة.

٤ - ومن أعظم الاكتشافات البيولوجية في الربع الأخير من القرن العشرين اكتشاف «الانبعاثات الفوتونية الحيوية». فقد ثبت أن جميع الكائنات الحية تبعث تياراً ضئيلاً مستمرًا من الفوتونات (وحدات الضوء)، التي أُعتبرت من أهم وسائل التواصل بين أجزاء الكائن الحى، وبين مختلف الكائنات، وكذلك بينها وبين العالم الخارجى. وقد أمكن تصوير هذه الفوتونات بوضوح مذهل وهى تبعث من مختلف أعضاء الكائنات الحية. كما أمكن تصويرها وهى تتدفق من أطراف أصابع خبراء المعالجة عن بعد.

٥ - وقد أثبتت تجارب ويليام تيللر أن التركيز الذهني ونشاطاتنا العقلية (أفكارنا ونوايانا) تصدر طاقات (يمكن تخزينها ونقلها) قادرة على إحداث تأثير على بعض العمليات الكيميائية والبيولوجية في الوسط المحيط!.

٦ - وبعد أن كان العلم ينظر لفيزياء الكم باعتبارها أم الفيزياء، وينطلق منها لتفسير جميع الظواهر الفيزيائية، فقد توصل العلم اليوم إلى ما يعرف بـ «فيزياء الفراغ» التي ينبغى اعتبارها نقطة الانطلاق في تفسير كل ما يجرى في كوننا (الكبير والصغير = الإنسان). فالفراغ يحوى كمًا هائلًا من الطاقة الكامنة غير المتشكلة، وربما كان تأثير الوعى / الأفكار / النية البشرية على ما حولنا يتم من خلال تحويل جزء من هذه الطاقة الكامنة إلى طور فعّال يمكنه التأثير على العالم الفيزيائى.

٧ - إن ذلك يؤكد أن الوجود كله وحدة متشابكة، وأن الإنسان يؤثر بعقله ونيته وإرادته في العالم المادى وفي حقائقه الفيزيائية، وأن الطبيعة أغرز كثيرًا وأغنى كثيرًا من كل تصوراتنا، إننا مجرد أطفال نحى تحت أقدام الوجود.

٨ - ينبغى التحذير من أن قدرة عملياتنا العقلية على التأثير على العالم الفيزيائى يتم إساءة

استغلالها من قِبَل «دجالين» غير متدربين، مستغلين في ذلك حاجات الناس الاجتماعية والنفسية والصحية.

## خامساً: أنا نتاج التطوير الإلهي

١ - لا شك أن نظرية التطور لدارون هي أكثر النظريات - عبر التاريخ - إثارة للجدل. وتتكون النظرية من شقين رئيسيين: الأول، أن لكل الكائنات الحية سلفاً مشتركاً واحداً (أو أسلاف قليلة) نشأت عنه بالتطور البيولوجي. والشق الثاني، أن التطور حدث بآلية الانتخاب الطبيعي بعد حدوث طفرات عشوائية. والأدلة العلمية تؤكد الشق الأول، لكنها تثبت تماماً عجز العشوائية عن إحداث التطور.

ونضيف إلى ذلك - بخصوص الإنسان - عجز التطور العشوائي عن تشكيل المخ البشري وإمداده بقدراته العقلية المتميزة. وقد حدا ذلك سير ألفريد والاس (نظير دارون) إلى اعتبار العقل البشري نفخة إلهية. كما حدا ناعوم تشومسكى (حُجة علم اللغويات) إلى اعتبار أن نشأة اللغة الإنسانية (التي هي أهم تجليات العقل البشري) كانت عملية انبثاق فجائية.

٢ - نتيجة للمفاهيم السابقة، ظهرت في العالم مدرسة تتزايد قوتها، تتبنى مفهوم «التطوير الإلهي». وتقبل هذه المدرسة مفهوم تطور الكائنات الحية، وفي الوقت نفسه ترى أن عملية التطوير وكذلك نشأة العقل البشري قد احتاجت إلى قدر هائل من العلم والذكاء والإبداع، مما تعجز عنه العشوائية، ولا يتوافر إلا لإله حكيم قادر.

٣ - يرجع انفصال أشباه الإنسان عن السلف المشترك الذي جمعه بباقي الرئيسيات إلى قرابة ٨ ملايين عام. لقد كان القرد الجنوبي أول أشباه الإنسان التي عثر على حفريات لها، ثم تطور عنه أول أنواع جنس الإنسان، وهو الإنسان الصَّناع، ثم الإنسان منتصب القامة، الذي يُعتبر سلفاً لإنسان نياندرتال (منذ ٢٠٠ ألف سنة) وإنسان كرومانيون (منذ ١٣٠ ألف سنة) الذي هو الإنسان العاقل الحديث. والرأى الأرجح أن كل هذه التطورات قد حدثت في قارة أفريقيا، التي يمكن اعتبارها مهد الجنس البشري.

٤ - يمكن تلخيص الملامح التطورية لـ «جسد الإنسان الحديث» التي انفصل بها عن أسلافه في أربع نقاط رئيسية: الزيادة التدريجية المطردة في حجم المخ، السير على القدمين منتصب القامة، تغيرات جوهرية في بنية وأداء اليد، إعداد الحنجرة لإنتاج

الكلام، وهى الخطوة التى تمت قبل بدء الإنسان فى الكلام بمئات الآلاف من السنين، مما يثبت أنها كانت عملية تكيف مسبق، تم الإعداد فيها (قصداً) لنشأة اللغة. كما أثبتت الدراسات أن مجرد الزيادة فى حجم المخ البشرى ليست كافية لظهور قدراته العقلية المتميزة، وإن كانت هذه الزيادة قد سمحت بزيادة القدرة التخزينية المعلوماتية للمخ البشرى بقدر هائل. وقد حدثت هذه الزيادة بشكل خاص فى القشرة المخية للجزء الأمامى من الفص الجبهى.

٥ - وعلى المستوى الجينى، يتفق الإنسان مع أقرب الرئيسيات إليه وهو الشمبانزى إلى حد التطابق (١٠٠٪)، وبعد استبعاد الجينات الخاملة يصل تشابه الجينات العاملة إلى ٩٨,٧٪، مما يشير إلى أن العامل الحاسم فى تميز الإنسان (على المستوى الجسدى) هو تنشيط بعض الجينات الخاملة. وقد توصل العلماء بالفعل إلى تلك الجينات التى تم تنشيطها.

## أنا... فى العلوم الإنسانية

### سادساً: الذات الإنسانية حَيَّرَت العقل البشرى

١ - تُعتبر «الفلسفة الغربية» (الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الحديثة)، فى نظرتها إلى الذات الإنسانية، أكثر الأنماط تجرداً كعمل عقلى بعيد عن الروافد الدينية. وقد أدرك معظم فلاسفة هذه المدرسة ثنائية الروح / العقل - الجسم فى الإنسان، ثم انقسموا إلى فريقين رئيسيين؛ الأول يرى أن الروح موجود مَادى يتكون من نفس ذرات المادة فى أدق صورها (كالهواء والنار) وأهم هؤلاء هم الفلاسفة الذريين فى مرحلة ما قبل سقراط. والفريق الثانى يرى أن الروح / العقل جوهر لا مَادى، وأشهرهم الفيثاغوريون وأرسطو ثم الديكارتيون فى الفلسفة الحديثة.

٢ - تُقابلنا فى الفكر الشرقى القديم، الديانة «الهندوسية»، كمزيج متباين من الفكر الدينى والعمل العقلى والنظرات الفلكلورية، وفيها نجد ثنائية الروح / العقل - الجسم ظاهرة تماماً فى حياة الإنسان الحالية. وبعد أن تنتهى دورات التناسخ، تتحرر الروح وتنفى

الجسدية، وترتد الثنائية إلى واحدة، ليست للكائن الإنسانى وحسب، لكنها وحدة وجود مطلقة ليس فيها فرق بين والموجد الموجود ولا بين السبب والنتيجة.

٣ - لم تكتف «البوذية» بأن تكون محاولة للتحرر من سطوة رجال الدين الهندوس، بل أصبحت تحرراً من الدين ككل. فيبوزا - انطلاقاً من تجاربه الذاتية - أنكر الوجود الإلهي، كما أنكر وجود الذات الإنسانية! بعد أن اعتبر أن كل ما يقوم به الإنسان هو مجرد خصائص ونشاطات لا ترجع إلى ذات فاعلة. وبالرغم من ذلك نجد البوذيين اليوم يقدسون بوذا ويضعون تماثيله ضمن تماثيل آلهة الهندوسية، ولا أرى ذلك إلا استجابة لفطرة عارمة داخل الإنسان تدفعه للبحث عن الإله الخالق.

٤ - ترجع نظرة «الفكر المصرى القديم» بخصوص الذات الإنسانية إلى أصول دينية سماوية، بينما اقتصر دور العقل على صياغة التفاصيل، التى إذا جُردت تبقى تصور عقائدى واضح لا يختلف كثيراً عن معتقداتنا الدينية. فالمصرى القديم يؤمن بثنائية الإله الخالق والإنسان المخلوق، كما يؤمن بثنائية الروح - الجسم، سواء فى الحياة الدنيا أو فى الحياة الآخرة. وقد انعكست هذه النظرة على حياة المصرى القديم، سواء فى سلوكه، أو عاداته وتقاليده، أو هندسته ومعماره.

٥ - إذا كان «لكل جواد كبوة» فإن العقل الإنسانى قد أصاب أحياناً وكَبَا أحياناً أخرى فى سعيه لفهم الإنسان. ولعل العقبة الكؤود التى أعاقته عن الوصول إلى كمال الحقيقة هى أن إدراك الشئ على حقيقته يحتاج إلى مُدرك أعلى؛ لذلك فإن النظرة فى المرأة لا تعكس إلا الصورة الظاهرة، ولكن ألا يكفى العقل الإنسانى شرف المحاولة؟!

### سابعاً: هكذا بُنِيَتْ الحضارة

١ - لا شك أن ما مَكَّنَ الإنسان من البقاء ثم الانتشار وبناء الحضارات هو مزيج مُحْكَم التوازن من عناصر ثلاث؛ العقل - والبنية الجسدية - والسلوك الاجتماعى الفطرى. وقد دفعت الميول الاجتماعية الإنسان لابتكار مؤسسة الأسرة والمحافظة عليها، فكانت اللبنة التى قامت عليها الحضارة الإنسانية وحمّت الإنسان من الانقراض.

٢ - عاش الإنسان فى المراحل الأولى من وجوده كأسر متناثرة، يارسون الصيد الذى تخصص فيه الرجال وجمع الثمار الذى كانت تقوم به النساء بالإضافة لرعاية الصغار،

وقد حقق هذا النمط المعيشى للإنسان قدرًا من الرفاهية وفرص الترفيه، بشكل غير متاح لكثير من الشعوب الآن!. وعندما استشعر الإنسان أهمية الحياة الجماعية بدأت الأسر فى الاجتماع فى مجموعات تحقق لها الأمان. وكلما نضبت الموارد فى منطقة، كان قاطنوها يحزمون متاعهم الخفيف ليرحلوا إلى أماكن أخرى.

٣ - ثم انتقل الإنسان تدريجيًا (فى مختلف أنحاء العالم) من حياة الصيد وجمع الثمار إلى «إنتاج الغذاء». وصحب ذلك عملية تهجين للنباتات وأيضًا للحيوانات، وقد سمح ذلك بوفرة غذائية سدت احتياجات الأعداد المتزايدة من البشر. وبذلك استقر الإنسان فى «قرى زراعية» أخذت فى التزايد عددًا واتساعًا على حساب مناطق معيشة الصيادين وجامعى الثمار.

٤ - منذ أكثر من عشرة آلاف سنة قامت «الثورة المدنية»، فبدأت المدن فى الظهور، كمراكز صناعية وتجارية بعد أن استقرت مجموعات كثيفة من السكان قرب مصادر المواد الخام. وقد تطلب ذلك إنشاء تحصينات دفاعية وتكوين طبقة متخصصة من الجنود المتفرغين للحماية من السلب والنهب والدفاع عن المدن. كما مدت تلك المدن المحصنة القوية سيطرتها على المناطق المحيطة وألقت على كاهل الفلاحين عبئًا هائلًا من أجل توفير الغذاء والسلاح وإعداد الجيش بالأفراد. وكانت هذه المدن بداية لنشأة الإمبراطوريات فى العالم القديم، وبذلك انقسمت المجتمعات إلى طبقة حاكمة متميزة وطبقات فقيرة مطحونة.

ولا شك أن الانتقال من حياة الصيد وجمع الثمار إلى حياة القرية، ثم قيام الثورة المدنية، قد صاحبه تغييرات جذرية فى كل مجالات الحياة؛ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية.

٥ - ومنذ قرابة ٧ - ٨ آلاف سنة، دفعت الحياة المدنية نشأة «الكتابة» وتطورها وانتشارها خطوات واسعة للأمام، فقد كانت ضرورية لتسجيل المعاملات المادية وكذلك إعطاء القوانين والقرارات الإدارية صفة الديمومة والذیوع. وقد تطورت الكتابة من رسوم للأشياء، إلى رسوم تمثل المعانى، إلى رموز كانت هى بداية حروف الهجاء.

٦ - خلال القرن الأخير، تغيرت الحياة الإنسانية فى كل مناحيها بسرعة أكبر وبشكل أشمل مما حدث طوال العشرة آلاف سنة السابقة، وتعد هذه التغيرات إفرارًا للثورة الصناعية فى أوروبا الغربية.

وقد حقق هذا «التحديث» للإنسان مستويات من الرفاهية وزيادة متوسط العمر لم يكن يحلم بها، كما أنشأ أنظمة ديمقراطية قل معها الاستبداد الفردى. وفي المقابل، صاحب التحديث سلبيات عديدة، أهمها تلاشى انتماء الفرد لعائلته وعشيرته ودينه بل ولأمته، لحساب زملائه فى المهنة والنظام الوظيفى. كما حدثت تغيرات جذرية على المستوى الشخصى، لا تحقق للإنسان أهدافه وغاياته الطبيعية، بل فرضت عليه أهداف وغايات لا تتناسب مع احتياجاته الفطرية، فشعر الإنسان بالاغتراب، حتى إن الكثير من الأنثروبولوجيين يرون أن أسلافنا من الصيادين وجامعى الثمار كانوا أسعد منا حالاً.

٧ - لقد سمح الموقع الجغرافى والطبيعة المناخية لوادى النيل بأن يكون «جنة الخلد» التى لجأ إليها إنسان العصر الحجري الفار من جفاف وتصحر هضبة شمال أفريقيا، فكونوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء نباتياً وحيوانياً ثابتاً، كما استخرجوا وشكلوا المعادن، واخترعوا أقدم نظام كتابى، وأنشأوا بذلك فى مصر القديمة أول دولة متحضرة كبيرة فى التاريخ، يحكمها ملك واحد منذ سبعة آلاف سنة، فمهدوا بذلك طريق التقدم الطويل نحو التطور الحضارى.

ومع ذلك لم يكن العطاء الأكبر الذى قدمته الحضارة المصرية القديمة للبشرية هو التقدم المادى، بل كان هو «الضمير»، الذى هو ميزان الصواب والخطأ، وما ينبغى وما لا ينبغى، ومفاهيم الحرية والعدل والمساواة، وإنكار الذات، والاحترام المتبادل، والسعى إلى التسامى الروحى.

٨ - ما كان للحضارة الإنسانية المعاصرة، التى يباهى بها الإنسان الحديث، أن تحقق ما حققته فى المجالات العلمية والإنسانية دون الرافد العظيم الذى أمدتها به الحضارة العربية الإسلامية، وقد أكد ذلك المعنى المستشرق سبنسر فاميرى فى قوله: «.. لا يسع فلكى واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسماً عربياً، ولا يستطيع أى عالم طبيعى أن يُحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درساً عربياً، ولا يقدر أى قاض أن يبت اليوم فى خلاف دون أن يستدعى مبدأ أملىته العرب، ولا يسع أى طبيب أن يتأمل أحد الأمراض المعروفة منذ القدم إلا ويهمس بآراء طبيب عربى، ولا يستطيع أى رحالة أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وإفريقيا دون أن يعتمد على اللغة العربية».

## ثامناً: الحضارة المعاصرة جعلتني مَسْخاً مشوهاً

١ - يتجاذب النفس الإنسانية نمطان من التوجه في الحياة، الأول هو «نمط التملك» المهيمن على المجتمع الصناعى الحديث، الذى يحقق الشعور بالذات من خلال القوة والتملك المادى، ويقوم على الجشع والحسد والعدوان. أما الثانى، فـ «نمط الكينونة» الذى يسعى لإثبات الذات من داخلنا، ويقوم على الحب وسمو القيم الإنسانية فوق القيم المادية. إن الفرق الجوهرى بين الكينونة والتملك هو الفرق بين التوجه نحو الإنسان والتوجه نحو الأشياء.

إن الحاجة لإحداث تغيير جذرى فى وجدان الإنسان وقلبه وضميره لا تنبع من كونها مطلباً أخلاقياً ودينيّاً وحسب، بل أصبحت لأول مرة فى التاريخ شرطاً لبقاء الجنس البشرى.

٢ - إن الحضارة المادية المعاصرة (بإيجابياتها وسلبياتها) إفراز لعقل مادى محاييد، لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بالوجود وبمنشأ الإنسان ومآله والغرض من وجوده) أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. لذلك فهو لا يعترف بوجود مرجعية أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، بل يستمد قيمه من واقعه المتغير الذى يصير إليه، أى أنه يتبع «منطق الأمر الواقع» أو «أخلاق الصيرورة».

٣ - تقوم الحضارة الحديثة بتفكيك الإنسان تماماً (رده إلى ماديته)، ثم إعادة تركيبه كمُنتج ومستهلك. وحتى يتحمل الإنسان هذا النمط المعيشى غمرته تلك الحضارة بأكبر قدر من الاستمتاع واللذة، فصار فى ظلها متوجّهاً نحو هدف نهائى مركب واحد: «الاستمتاع - الإنتاج - الاستهلاك». وبذلك أصبح الإنسان خالى من المنظور الإنسانى، ومنزوع القداسة عن كل شىء، حتى عن نفسه.

٤ - من أهم سلبيات الحضارة المادية الحديثة «النسبية المعرفية والأخلاقية المطلقة» بعد أن فقد الإنسان مرجعيته (الدين، العرف، الأسرة...). إن هذه النسبية قوضت الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار، ويمكن - فى الوقت ذاته - إقناعه بأى شىء وكل شىء. وقد انعكس غياب المرجعية على كل مناحى الحياة؛ الاجتماعية - السياسية الفنية... وكنيجة طبيعية لانعدام المرجعية ضمرت مؤسسة الأسرة، وساد الهوس الجنسى، والشذوذ، والاغتصاب، وقامت الثورة الجنسية فى ستينيات القرن العشرين، وظهرت الأشكال البديلة للأسرة! وانتشرت الإباحية فى الفن.

٥ - يصف روجيه جارودى الحضارة الحديثة بأنها «حضارة حفرت قبراً يكفى لدفن العالم». فقد بسطت سيطرتها على العالم عن طريق الإمبريالية العسكرية، ثم السياسية، ثم الاقتصادية. ولم تكتف هذه الحضارة بذلك بل مارست على الإنسان «إمبريالية نفسية» حولته إلى حيوان اقتصادى جسمانى، لا يبحث إلا عن منفعة الاقتصادية ولذته الجسدية. وتم ذلك عن طريق غزو داخلى مارسه الإعلام (من خلال الجنس والإبهار) بسطوة واقتدار، حين أقنع الإنسان بأن يكون «بسيطاً»، «طبيعياً» يحيا «بلا عقد». إنها باختصار حضارة «اللاحضارة».

٦ - ثم استمر مفهوم النسبية فى الاتساع حتى قَوَّض كل شىء، بل وقَوَّض الإحساس بالوجود الحقيقى للعالم. لقد دخلت حضارتنا «عصر ما بعد الحداثة» الذى تحطمت فيه كل اليقينيات والمسلّمات، حتى سُمِّيت «ضد الأساس»؛ لأنها تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز ولا معيار يُتَّكَم إليه؛ لذلك فأيديولوجية ما بعد الحداثة ترفض أن تعطى للتاريخ أى معنى (عصر نهاية التاريخ) وتُسقط كل الأيديولوجيات (عصر ما بعد الأيديولوجيات)، بل وترفض أن تعطى للإنسان أى قيمة أو مركزية (عصر ما بعد الإنسان).

٧ - لقد آن الأوان لعمل دراسة لكلفة التقدم الذى أصبح يهدد وجود الإنسان على هذا الكوكب بدلاً من أن يحقق له السعادة. لقد أصبح التقدم هدفاً فى حد ذاته، فكانت النتيجة استنزاف موارد الطبيعة، وتلويث البيئة، والتلاعب بالجينات، ومسح الإنسان، وتحميل جهازه العصبى فوق الطاقة. لذلك ينبغى مقارنة عائد التقدم بتكاليفه، وأن ننظر للتقدم المادى فى إطار ما يُحدث من تخلف إنسانى.

## أنا... فى القرآن الكريم

### تاسعاً: ذات ذات خمسة روافد

١ - تنظر الديانات والفلسفات الدينية للإنسان نظرات مختلفة، بين من يرى أنه جوهر واحد وهو الروح، إذ الجسد إلى فناء، ومن يراه روح وجسد، ومن يراه روح ونفس وجسد. والمتأمل فى القرآن الكريم بعمق يرى الذات الإنسانية من خلال خماسية يؤكد عليها بالطرح المتكرر. فالإنسان - فى القرآن الكريم - جسد، وعقل، وقلب، ونفس، وروح.

٢ - «الجسد» في القرآن الكريم مُكوّن أساسي للذات الإنسانية، فلا هو شيء مُدّنس مُنتَقَص لا يحقق الإنسان العروج الروحي إلا بإذلاله، ولا هو دابة للروح تصل بها إلى مُبتغائها ثم تتركها. و«حياة الجسد» عملية بيولوجية نشترك فيها مع كل الكائنات الحية، تعتمد على نشاطات عضوية لا علاقة لها «بالروح» الإنسانى العاقل المُكَلَّف.

٣ - يتحدث القرآن الكريم عن «التعقل» كوظيفة، ولا يأتي فيه ذكر للعقل. وقد وهب الله ﷻ العقل ملكات تعينه على القيام بمهامه التي حدد للإنسان مجالاتها وغاياتها، كما حَجَرَ عليه التفكير في مجالات أخرى. كذلك بيّن الله ﷻ للإنسان أن من يُعطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان الأعجم.

٤ - ينظر القرآن الكريم إلى «القلب» في الإنسان كالمملك بين الرعية. وفي مواضع عديدة، يحدد القرآن الكريم للقلب صفات ووظائف عاطفية ومنطقية تُعجز عن الحصر، منها ما هو خير ومنها ما هو شر، حتى يكاد يكون مسئولاً عن سلوك الإنسان كله. وتبعاً لذلك تنقسم القلوب إلى أربعة أنواع: قلوب المؤمنين، وقلوب الكفار والمنافقين، والقلوب الميتة، والقلوب المريضة.

٥ - «والروح»، هي أشرف عناصر الذات الإنسانية وأزكاها، فهي خير مطلق، وهي خصوصية الإنسان التي يتميز بها على باقى الكائنات. وقد فتح نفخُ الروح للإنسان المجالات العلوية، فأصبح قادراً على التعامل مع عوالم الضمير والإيمان والعدالة والرحمة والجمال والفرن. لقد أصبح الإنسان بتلك النفخة سيداً كونياً أبدياً، واستحق الخلافة من الله في الأرض.

ويختلف تعلُّق الروح بالجسد من حين لآخر، فهو في الجنين غير تعلقه بعد الولادة، وفي اليقظة غير تعلقه أثناء النوم، وتعلقه بعد الوفاة غير تعلقه عند البعث. وإذا كان من اليقين القرآنى أن أرواح الموتى تتلاقى، فهناك إشارات تشير إلى تلاقي أرواح الأموات بأرواح الأحياء.

٦ - تُعتبر «النفس» أقرب عناصر الذات الإنسانية إلينا، وجاء ذكرها كثيراً في القرآن الكريم، واختلفت الآراء في حقيقتها وفي علاقتها بالروح. والنفس «محل التكليف والاختيار» إذ إن فيها النوازع النفسية (إن خيراً أو شراً)، وقد أوتى الإنسان الحرية

في تزكية النفس وتطهيرها أو تدنيسها وظلمها. والنفس في القرآن الكريم على ثلاث مراتب؛ نفس أمارة بالسوء، ونفس لَوَّامة ونفس مطمئنة.

٧ - ويمكن اعتبار أن للإنسان خمسة أعمار: عُمر الميلاد، وعمر الجسم (صحته) وعمر العقل (حكيمته)، وعمر القلب (إقباله على الحياة)، وعُمر الروح (الخالدة أبداً).

## عاشراً: الموت بين العلم والدين

١ - الموت بالنسبة للطب، هو توقف وظائف الأجهزة الحيوية للجسم «الجهاز التنفسي - الجهاز الدوري (القلب) - والجهاز العصبي (المخ)». ويميز الطب ثلاثة مستويات لموت المخ؛ موت القشرة المخية، موت جذع المخ، موت المخ الكلى. وبعد موت المخ قد يستمر نشاط باقى الوظائف الحيوية للجسم لفترة بدعم من أجهزة التنفس الصناعى والعقاقير الطبية. وقد اتفقت معظم المجامع الدينية والطبية على اعتبار الإنسان بعد موت جذع المخ ميّتاً، وأجازت نقل الأعضاء منه.

٢ - يُفَرِّق القرآن الكريم بين الموت والوفاة، فالموت نقيض الحياة، وهو أمر يُترك للطب تشخيصه. أما الوفاة فهي مفارقة الروح الإنسانى المدرك للجسم، وهذه المفارقة تحدث عند الموت، كما تحدث عند النوم، الذى يمكن اعتباره «الوفاة الصغرى».

وبتأمل الآيات القرآنية، يتضح أن الوفاة الكبرى (مفارقة الروح للجسم بشكل نهائى) تسبق الموت، ومن ثم فإن التشخيص الطبى للموت ينسجم مع المفهوم الدينى الذى يرى أن الموت يكتمل بتحقيق مرحلتين، مفارقة الروح النهائية للجسم، ثم توقف الحياة.

٣ - ينظر القرآن الكريم للموت باعتباره «خلق» شأن الحياة تماماً، وأنه معبر بين مسيرتين، ينقلنا إلى «حياة البرزخ»، التى هى مرحلة انتقالية تُصَفَّى فيها النفس حياتها الدنيوية وتتهيأ لحياتها الأخرى التى تبدأ بيوم القيامة.

٤ - ليس البعث مجرد عودة الإنسان إلى الحياة، بل هو بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة (كإعدام قيد الزمان والمكان وتوقف السببية)، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة.

٥ - لا شك أن العناصر الخمس للذات الإنسانية ستتبدل بما يتلاءم مع حياتنا في الجنة (إن شاء الله). فالجسم يصير في شباب دائم، والعقل يتوقف عن كدحه ويهنا بنعيمه الخالد، أما النفس فتتغير طبيعتها من «الأنا المريدة» التي تميز النفس الأمارة إلى «الأنا المحبة» التي تميز النفس الآمنة المطمئنة. وهذا التبدل في عناصر النفس يتطلب إعداد مسبق يقوم به الإنسان في حياته الدنيا عن طريق المجاهدة والعبادة والعمل الصالح.

القارئ الكريم...

كان منهجنا في رحلتنا أن نتعرف على الذات الإنسانية، من خلال نظرة العلوم المختلفة إليها، ثم من خلال تعريف القرآن الكريم بها. وهدفنا المباشر من ذلك تحقيق مزيد من الفهم لأنفسنا ولمن حولنا، بعد أن طمست الحضارة الحديثة ملامح هويتنا الإنسانية. وهدفنا الأسمى أن نرقى من معرفة الإنسان إلى معرفة الله ، فمن عرف نفسه عرف ربه...  
وأتمنى أن نكون في ختام رحلتنا قد حققنا هدفنا...

obeikandi.com

## تعريف بالمؤلف

أ.د. عمرو عبد المنعم شريف

\* من مواليد بورسعيد عام ١٩٥٠.

\* أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق - كلية الطب - جامعة عين شمس. مع التخصص الدقيق في جراحات الكبد والجهاز المرارى وجراحة مناظير البطن وجراحات الحوادث.

\* حاصل على درجة البكالوريوس فى الطب والجراحة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٤، ودرجتى الماجستير عام ١٩٧٨ والدكتوراه عام ١٩٨١ فى الجراحة العامة من كلية الطب جامعة عين شمس.

\* عضو مؤسس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المرارى - بسويسرا.

\* أختير المدرس المثالى على مستوى جامعة عين شمس عام ١٩٨٤، والطبيب المثالى على مستوى الجمهورية عام ١٩٨٨.

\* مفكر ومحاضر فى موضوعات التفكير العلمى ونشأة الحضارات، والعلاقة بين العلم والفلسفة والعقل وبين الأديان.

## \* من مؤلفاته:

- كتاب «أبى آدم: من الطين إلى الإنسان»، طرح فيه مفهوماً جديداً حول نشأة الإنسان عن طريق التطور الموجه.
- كتاب «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية»، عرض فيه (من خلال فكر د. المسيرى) إيجابيات وسلبيات الحضارة المادية الحديثة، وأسوأها ظهور الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل.
- كتاب «المخ ذكر أم أنثى؟!»، وتناول فيه الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الرجل ومخ المرأة، وانعكاس ذلك على أسلوب تفكير ومشاعر وسلوك كل من الجنسين. وشارك في تأليفه د. نبيل كامل خبير التنمية البشرية.
- كتاب «رحلة عقل»، ويعرض فيه كيف يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، وذلك من خلال عرض الرحلة الإيمانية لأكبر ملحد في القرن العشرين (أستاذ الفلسفة البريطاني، سير أنتوني فلو)، ثم يستكمل الكتاب الرحلة ليعرض البراهين العقلية الدالة على تواصل السماء بالأرض (الديانات).
- كتاب «كيف بدأ الخلق»، يعرض قصة خلق الكون ثم الحياة وتطور الكائنات الحية، وصولاً إلى الإنسان. ويقرأ قصة خلق الإنسان في القرآن الكريم في ضوء حقائق العلم.
- كتاب «ثم صار المخ عقلاً»، ويتناول فيه دور المخ البشرى في ملكات الإنسان العقلية ومشاعره الروحية، وهى أهم ما يتميز به الإنسان على غيره من الكائنات.
- ترجم كتاب «الطب المصرى القديم» مع د. عادل وديع فلسطين، وهو أفضل كتاب في موضوعه.